رحلة التعافي

© حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: رحلة التعافي
تـأليـــــــف: د. محمود المهدي
تدقيق لغوي: رنا أبو الغيط
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القـطـــــع: 21X14
سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 29235 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 671 - 5

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-671-5

رحلة التعافي

رواية

د. محمود المهدي

٢٠٢٥م

إهداء

أهدي هذه الرواية إلى أبي وأمي، اللذين رحلا عن دُنيانا وبقي أثرهما الطيّب. إليكما أهدي هذه الرواية اعترافًا بفضلكما ووفاءً لعطائكما.

وإلى سندي في الحياة بعد الله عز وجل أخي الأكبر:

محمد أحمد المهدي

وإلى أختي الغالية وزوجتي الحبيبة، وابني وابنتي.

وإلى كل من دعمني يومًا ولو بكلمة،

وأختص بالذكر أخي الروائي محمد الغرباوي.

المقدمة

الحمد لله الذي قدّم من شاء بفضله، وأخّر من شاء بعدله، وهدى من شاء برحمته، وعلّم من شاء بحكمته، وأعان من شاء بقدرته، والصلاة والسلام على خير البشر، معلم الناس الخير، الذي قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة: "العين تزني، والقلب يزني، فزنا العين النظر، وزنا القلب التمني، والفرج يصدق ما هنالك أو يكذبه". فمما لا شك فيه أن نعمة العين لا تضاهيها نعمة، والتمتع بالنظر في آيات الله لهو شيء بديع، ولكن على الجانب الآخر، فالعين هي مبتدأ الشهوة، فإطلاق النظر يرسل للقلب سهامًا مؤذية قد تقوده إلى الإدمان. فالإدمان لا يقتصر في هذا العصر على المواد المخدرة فحسب، بل امتد أيضًا إلى السلوكيات والأنشطة التي يقوم بها بعضنا يوميًا، فأصبح الإدمان نوعان: (إدمان التعاطي والإدمان السلوكي). ورغم أن المرتبط في أذهان الناس بكلمة إدمان هو إدمان التعاطي، فإن الإدمان السلوكي لا يقل ضررًا عنه من كل النواحي، فدائرة المكافأة في الدماغ هي ذاتها من ناحية إفراز الدوبامين في كلا

النوعين من الإدمان، غير أن الإدمان السلوكي لا يتعاطى الشخص فيه مادة كيميائية، بل يدمن على ممارسة سلوك أو نشاط معين يمنحه شعور المتعة اللحظية، لكنه يسبب دمارًا كبيرًا في حياته على المدى البعيد، ويفقد السيطرة على سلوكه في مواجهة رغباته، مما يؤدي إلى تدهور ملحوظ في حياة المدمن، من انخفاض المستوى الدراسي أو قلة الإنتاجية في العمل أو قطع العلاقات الاجتماعية في البيئة المحيطة. وهناك أمثلة كثيرة للإدمان السلوكي مثل: إدمان الإباحية، والعادة السرية، والقمار، والألعاب الإلكترونية، والهاتف، والإنترنت، وغيرها من الإدمانات السلوكية المدمرة، والتي تحتاج إلى خطط علمية مدروسة للخلاص من مثل تلك الإدمانات، مع معرفة كيفية مواجهة الأعراض الانسحابية التي تواجه المدمن حال محاولته التعافي منها، واستيعاب حجم خطورتها بسبب انتشارها الكبير، وعدم الاحتياج إلى مادة مخدرة فعلية للوقوع في مثل هذه الإدمانات التي لا تحتاج في الغالب أكثر من هاتف محمول أصبح في أيدي كل الأعمار تقريبًا.

والله أسأل أن يوفقني لتسليط الضوء على حلول لمثل هذه الإدمانات، فقد كنت أردت عمل هذه الرواية في بداية الأمر ككتاب علميّ أكاديميٍّ كما تعودت في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، ولكن بعد عدة خطوات في الكتاب، وجدت أن الأمر سيكون واقعيًّا عندما تكون رواية بسردٍ دراميّ يتداخل فيه بعض الحالات الحقيقية التي

تعاملت معها على مدار سنوات من علاجات الإدمانات السلوكية وتجارب أشخاص حقيقيين أدمجها داخل هذه الرواية، لعل الله يوفقني لغرس طيب في هذا المجال، وأن ينفعني بهذه الكلمات يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

د. محمود المهدي

رحلة الموت

ذهبت في هذا اليوم إلى القهوة مبكرًا عن ميعادي اليومي حتى قابلت ذلك الرجل.. وعندما قال لي تلك الجملة شعرت أن هذه الفكرة المجنونة هي الخلاص من كل ما أنا فيه، كأنما أعطاني فرصة انتحار كنت أبحث عنها، ولكن بشكل غير مباشر.. اعتقدت أن كل من سأجدهم معي في هذه الرحلة التي أسميتها "رحلة الموت" يشاركونني نفس هذا الشعور.. لم أكن أعلم ما تفاصيلها؟ ولم أسأله عن أي شيء، غير أنه مجرد ما قال لي تلك الكلمة أخذت رقم هاتفه وقلت له سأفكر في الأمر.

بعد يومين اتصل عليّ الشخص الذي حدثني عن رحلة الموت، وبالفعل أبلغني عن موعد التقاء غير المقهى الذي كنا عليه، عندما عرضت عليه لما لا تكون المقابلة في نفس المقهى رفض رفضًا قاطعًا لهذه الفكرة، وأبلغني أنني ما دمت قررت خوض غمار هذا الأمر فالآن الدور عليّ لسماع الكلام لا للاشتراط، وأبلغني أنه عليّ إحضار مبلغ خمسة آلاف دينار ليبي عند اللقاء.. ومع تغيير أسلوب الكلام ونبرة الصوت أوجست في نفسي خيفة، لكن تذكرت أنها تذكرة انتحار غير مباشر، فوافقت على المكان الذي أبلغني إياه، أحضرت المبلغ الذي طلبه مني.. حضرت إلى المكان المتفق عليه،

أعطيته المال وأبلغني أن أمامي ثلاثة أيام لتجهيز نفسي للرحلة، وهم سيتواصلون معي لإبلاغي بمكان الانطلاق.

استيقظت في صباح اليوم التالي باكرًا على غير عادتي، وكنت أول الواصلين للورشة، وهذا ما لفت انتباه العم رمضان معتقدًا أني أريد العودة إلى العمل مرة أخرى، أو هذا ما أخبرني به عندما جلس معي، لكن على عكس توقعه أبلغته أني نويت الرحيل، لكن كما بدأت الفترة الأولى من عملي بكل جد واجتهاد أردت أن أختمها أيضًا بهذا الشكل، لعلكم تذكروني بالخير.. فما كان منه إلا أن قال لي إن بداخلي شيئًا طيبًا، وإنني شخص موهوب في صناعتي، لكن لا أعلم لماذا يأتي عليك أحيانًا شعور أنك لا تعطي للأمر قيمته ولا للعمل جهده، فأسررت ذلك في نفسي، فلم يعد الكلام يحتمل البوح به، ولم أعد أريد أن تشوه صورتي لديه أكثر مما هي عليه، فهذا السر الذي أخفيته عن العالم أجمع كل هذه المدة وكنت أوشكت على البوح به لوالدي، لكن خشيت ذلك، هل الآن أبوح بهذا السر للعم رمضان؟! الذي لا تجمعني به غير رابطة العمل والتي اهتزت في الآونة الأخيرة.. فإن كان أولى؛ كنت صارحت أبي أو أخي جمال مثلًا، لكن لم يعد بالإمكان أفضل مما كان.

ظللت تلك الأيام أعمل في الورشة ولا أطلب مالًا مقابل ذلك، فقد كنت ادخرت مبلغًا جيدًا للإنفاق منه، بالإضافة إلى المبلغ الذي

خصصته لتلك الرحلة، أو اعتقدت أنه سيكفيني، فقد كان اعتقادي أن الرحلة ما دامت عن طريق غير شرعي فلن تكون مكلفة، أو هكذا أردت.....

مع نهاية اليوم الخامس اتصل عليّ رقم غريب غير الذي كنت أتواصل معه، رددت فورًا، وإذا بالطرف الآخر يبلغني عن مكان اللقاء والموعد بعد صلاة الفجر القادم، كانت الورشة على وشك الغلق، ذهبت للجلوس مع عم رمضان وأبلغته أنني سأتجه غربًا للعمل بالقرب من طرابلس مع أناس أعرفهم.. قد كانت كذبة لم أود أن أقولها، ولكن لم أرد أن يقلق عليّ العم رمضان، وأن أنهي علاقتي معه بأفضل صورة ممكنة، بعد أن ودعته، أبلغته بتركي للغرفة فجرًا، وجدته يخرج من جيبه مبلغًا من المال ويعطيني إياه، رفضت أخذ أي أموال منه، فقد كان سخيًا بما فيه الكفاية طوال فترة عملي معه، حتى في فترات تغيبي عن العمل، لكن بعد إصرار منه أخذت المال، وانطلقت لتهيئة الغرفة على المغادرة.

****

لم أنم بالطبع تلك الليلة من التفكير.. أين سأكون في مثل هذا الوقت من الليلة القادمة؟ لكن بمجرد سماعي لقرآن الفجر الذي يسبق الأذان، تحركت بحقيبة سفري التي أرهقتها معي طوال رحلتي هذه، وبرغم أنها يبدو عليها طول السفر من قطع هنا وتمزيق هناك، لكن لم أحب أن أغيرها، فكنت أرى أنها رفيقتي الوحيدة الباقية معي من ذكرياتي في مصر.

بعد أن أخذنا دورنا في الانتظار في تلك الأوضاع التي لم تكن غريبة علي، فقد أصبحت خبيرًا في مثل تلك الأمور، بل إن المرة الأولى قد فرضت عليّ، شتان أن هذه المرة قد اخترت هذا الطريق بنفسي وأنا أتوقع الأسوأ. وبعد عدة أيام، بدأوا يأخذون بعضنا ليلًا تواليًا، حتى جاء دوري في ليلة شديدة الظلام، وتحركنا إلى الشاطئ من خلال سيارات مخصصة لذلك. أنزلونا قرب الشاطئ الذي كان السواد يكتسيه، وكان منظره ليلًا مرعبًا حقًا، فقد كنت أنظر إليه بخوف شديد، وكأن سيخرج منه ما يتخطفني دونًا عن الموجودين.

سلموا لكل فرد منا سترة نجاة ليرتديها، ثم أشاروا إلينا إلى قارب مطاطي يلقبونه بـ"زودياك". ذكرني هذا الاسم بقاتل متسلل قد سمعت به منذ سنوات، فكان مناسبًا للأحداث التي أعيشها فعلًا. كان القارب ليس على الشاطئ، ولكن لابد من أن تغمر قدماك بالماء لتصل إليه. كانت ليلة باردة، وكان الماء أشد برودة مما تخيلت، وكل

منا يحمل حقيبته على كتفه ويرتدي بدلة الإنقاذ البرتقالية متجهًا إلى القارب الذي لا يتحمل عشرة أشخاص، ووجدت فيه ما يقرب من الخمسين شخصًا وبدون قبطان يحركه، متعللين بأن التيار سيوصلنا إلى مبتغانا.

ركبنا القارب وبدأنا بالتحرك، كان أغلبنا من الشباب وبعض العائلات التي تصطحب أبناءها، وهذا ما فاجأني، وكنا من مصر والسودان وسوريا والصومال والنيجر وشخص إثيوبي.

قصص وحكايات كثيرة تقاذفتها الأمواج طوال ليل طويل مداه، لم ينهه إلا أشعة الشمس الحارقة التي بدأت تكوي أجساد الكبار والصغار، الماء من حولنا كأنه مرآة نار. بعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة في عرض البحر، تعطل المحرك فجأة، مما جعل القلق يسري في الركاب، وظلوا يقفون تارة ويجلسون أخرى. مع الأعداد الكبيرة بدأ القارب يتأرجح يمنة ويسرة، بدأت أسمع صرخات الأمهات وتضرعات الآخرين، كانت عيناي قد ملأتهما الدموع، ليس خوفًا بقدر ما هو حزن على ما آلت إليه أمور أبناء أمتنا من تركهم لبلادهم الممزقة، وذهابهم إلى التهلكة على أمل الوصول لبلاد الغرب.

تسلل الماء داخل القارب، فبدأ بعض الشباب بالقفز في الماء ظنًا منهم أن ذلك سينجيهم، أما أنا فكنت ممسكًا بالحبل الملفوف حول المحرك وأنطق بالشهادتين غير مبالٍ بما حولي، عكس فطرتي

في مساعدة الناس، حتى الشاب السوداني الذي كان ملتصقًا بي وجدته أمامي ملتصقًا بحبل آخر والخوف قد فطر قلبه. وتعجبت لحالي، ها هي اللحظة المنتظرة من تلك الرحلة.. لحظة النهاية. فلماذا أنا متمسك بذلك الحبل الذي لم أعتقد أنه سيصمد أكثر مما صمدت أنا؟ ها قد حانت اللحظة المرجوة من تلك الرحلة التي ستخفي كل تلك الأسرار التي تركتها خلفي، سأموت وتموت معي أسراري وأخباري، سأموت وسأترك خلفي الكثير من الألغاز التي لن يتمكن أحد من حلها يومًا. ومن عدد الغارقين علمت أن أغلب سترات النجاة لا تعمل، والبعض القليل هو الذي يعمل، ولا أعلم أنا من أي نوع كنت، هل من سعداء الحظ الذين حصلوا على سترة سليمة أم من البائسين الذين جاءت حظوظهم في سترة خربة؟ بل كنت لا أعلم، هل السعادة في النجاة أم في الغرق؟ ومع أن هذا ما كنت أتمناه، ظللت متمسكًا بذلك الحبل، ظنًا مني أنه سينجيني، لكن سرعان ما خارت قواه، وتمزق، وسقطت في البحر.

ولكن هذا هو الإنسان دائمًا، يسخط على كل الأقدار، فبالرغم من أن هذا الذي كنت أبحث عنه ليخفي تلك الأسرار وينهي تلك المسيرة التي لم أعرف يومًا كيف أنهيها، اعتمدت على سترتي لتنجيني، ولكني كنت ممن حصلوا على السترات الخربة. فلم أجد لي مخرجًا إلا ذاك السوداني الذي كان طوال الرحلة ممسكًا بي، نظرت إلى عينيه باستعطافٍ لعله يمد لي يد العون وينقذني،

ولكن!!! لا مجيب... سقطت في البحر، وبدأت في النزول إلى أسفل، فأنا لا أجيد السباحة. ظلت غياهب البحر تلتهمني شيئًا فشيئًا، حتى بدأت تتوقف أنفاسي وتظلم الدنيا من حولي، بيدين ممدودتين وقدمين لا حول لهما ولا قوة. حينها مر أمامي شريط حياتي كاملًا، وبدأت أتساءل: كيف وصلت لهذا الحال؟ وأنا الشاب المجتهد في عملي ودراستي، أنا الأزهري حافظ القرآن الكريم، ما الذي أوصلني إلى هذا؟ ولم أجد مجيبًا غير لسان حالي، أهو بذنب أبي الذي تخليت عنه حتى مات؟ أم بذنب أمي التي فُطر قلبها عليّ؟ أم بسبب ذلك السر الذي أخفيته عن العالم ولم أستطع التخلص منه ولا البوح به لأحد؟ يا تُرى ما السبب؟ ثم سكنت أنفاسي وأظلمت الدنيا من حولي، وكانت حقًا النهاية...

****

المصري معروف بجبروته

بمجرد وصولي للورشة في منطقة (براتو في توسكانا) شعرتُ براحة نفسية غريبة للمكان، استقبلني مالك الورشة "فرانشيسكو" ورحب بي أشد الترحيب. كان فرانشيسكو رجلًا يقترب من العقد السادس من العمر، صاحب ملامح هادئة، تعامله مختلف تمامًا عما رأيته في نابولي، حتى أني سألت بعد ذلك أحد المصريين الذين قابلتهم في توسكانا عن الفرق بين نابولي وتوسكانا، حيث كان هو الآخر قد أقام مدة أطول مني في نابولي. قال لي نصًا:

ـ العادات والتقاليد في نابولي مختلفة نسبيًا عن باقي إيطاليا.

برغم قوله هذا، لم أفهم مقصده، وأردت منه إيضاحًا أكثر للأمر، فقال:

ـ اعتبر نابولي في إيطاليا مثل الصعيد في مصر، لهم عاداتهم وتقاليدهم المختلفة بعض الشيء عن باقي إيطاليا، حتى عن باقي الجنوب الإيطالي.

هذا ما جعلني أشعر باختلاف الأمر فعلًا في التعامل مع أغلب السكان في توسكانا عما كان موجودًا في نابولي.

كان أول من شعرت معه بدفء التعامل هو فرانشيسكو مالك الورشة، الذي رفع عني كاهل الإحساس بالغربة الذي عشته قبل خروجي من مصر، فإحساس الغربة ليس شرطًا أن تفارق موطنك جسدًا، ولكن قد تكون تعيش في وسط أهلك وتشعر بالغربة، والعكس صحيح، قد تسكن بلادًا بينها وبين موطنك الأصلي آلاف الأميال ولا تشعر بأي غربة.

احتواني فرانشيسكو بطريقته الحنونة وأسلوبه الجزل، وكان يتعامل معي كأنه يعرفني منذ سنوات، وليس هذا أول يوم تطأ فيه قدمي ورشته. استقبلني أول يوم وقال لي:

ـ أشعر أنك سوف تنجح في هذا المكان، وكلما كان تركيزك في العمل أكبر، كلما اندمجت في الورشة بشكل أسرع.

كانت ورشة فرانشيسكو على مساحة كبيرة، ويعلوها شقته التي يسكن فيها هو وابنته الوحيدة منذ وفاة زوجته. خلف الورشة حديقة كبيرة بها العديد من أشجار الفواكه، وبها أيضًا العديد من الغرف الصغيرة للعمال. عندما أراني الحديقة وجدت تقريبًا كل الغرف فارغة، فقد كان أغلب العمال في الورشة يسكنون في سكن خاص بهم، حتى الغرف المشغولة كان يستخدمها فرانشيسكو كمخزن لبعض الأخشاب، فخيّرني بين الغرف التي أريدها، فاخترت

الغرفة المطلة على منتصف الحديقة. وضع فرانشيسكو يده على كتفي وقال:

ـ إذًا هذه الغرفة هي بيتك الجديد، وأتمنى لك التوفيق معنا.

نصحني بالراحة هذا اليوم على أن يكون بدء العمل من الغد.

****

استيقظت في بداية اليوم التالي بعد صراع فكريّ طويل قبل النوم، لم يُنهه إلا الوضوء والصلاة وقراءة بعض آيات من القرآن الكريم قبل النوم، وهو ما جعلني أستيقظ مبكرًا للعمل في الورشة. وما إن دخلت الورشة معتقدًا أني لن أجد أي شخص، حتى وجدت فرانشيسكو قد فتح الورشة وبدأ العمل حتى قبل مجيء العمال. كانت ورشة فرانشيسكو غاية في دقة التنظيم من حيث ترتيب الأخشاب وأدوات النجارة وتنسيق المعدات داخل الورشة.

بدأ فرانشيسكو بإعطائي بعض الأعمال الخشبية البسيطة، من منضدة أو مكتب، وظهرت لمساتي المتفانية في كل عمل أعمله. وذات مرة أعطاني دولابًا كبيرًا لإصلاح بعض الأمور فيه، وكان دولابًا أثريًا لا يستطيع كل النجارين تصليحه، فأي خطأ قد يكلف الكثير. لكن لثقة فرانشيسكو بي، التي بدأت تنشأ شيئًا فشيئًا من خلال أعمالي، أوكل إليَّ تصليح هذا الدولاب.

كان الدولاب ضخمًا حقًا، كأنه خارج من أحد قصور أباطرة الرومان. فقمت بالعمل عليه بمنتهى الدقة والتفاني، لدرجة أني سهرت الليل عليه بعد غلق الورشة أتأمل تفاصيل صنع هذا الدولاب العجيب. ومن ضمن استكشافي لأمر الدولاب وجدت به خزانة سرية داخل أحد الأدراج، وهي مخفية لا تراها إلا إذا أخرجت الدرج كاملًا. وجدت بعض البراغي التي يجب فكها، ثم يتم إيجاد درج آخر وُضع بشكل مقلوب، وعند نزعه تجد بداخله الخزانة الخشبية، التي عندما فتحتها وجدت بها كمية من المجوهرات تكفي لشراء مستودع كامل للأخشاب، وليس ورشة فقط.

أخذت هذه المجوهرات معي إلى الغرفة وانتظرت اليوم التالي حتى استيقظ فرانشيسكو. وما إن استيقظ حتى أخبرته بما وجدت من خزانة سرية، وأعطيته المجوهرات الموجودة في الدرج السري، الذي قد لا يكون صاحب الدولاب على علم بوجوده أصلًا. كانت المجوهرات تبدو بشكل قديم، وليست كأشكال المجوهرات الحديثة المتداولة. بالفعل، عندما أتى صاحب الدولاب وأخبره فرانشيسكو بما حدث، أكد أنه ورث الدولاب عن أبيه، الذي ورثه عن جده، ولم يكن يعلم أن به هذا الكنز.

بعد هذا الموقف، أعطاني فرانشيسكو ثقته الكاملة، لما رأى أني شخص نادر في هذا الزمان الذي قلت فيه الأمانة بشكل كبير، وهو

ما جعله يعهد إليَّ بمراجعة وتسليم طلبات العملاء بسيارة الشحن التابعة للورشة. كان هذا مقتصرًا عليه هو فقط، وبالفعل بدأت بتسليم الطلبات المنتهية واستلام الأخشاب الجديدة، لأتفاجأ أن مسؤولة الاستلام ومندوبة تسليم طلبات العملاء هي ابنته الوحيدة "ماريا".

عندما بدأت بهذا الأمر، طلب مني فرانشيسكو استخدام "الواتساب" للتواصل مع ماريا لترتيب تسليم الطلبات والتنسيق معها داخل مجموعة مشتركة. وعندما أخبرته أني لا أملك هاتفًا ذكيًا، اعتقد أن الأمر مادي، وأنني لا أملك المال الكافي لشرائه، مما جعله يهديني هاتفًا جوالًا (آيفون) على أمانتي، بالإضافة إلى استخدامه في العمل.

رفضت في بداية الأمر قبول هدية الهاتف الجوال، ولكن لكي لا يستغرب أمري في الإصرار على الرفض أو يبعدني عن العمل مع ماريا، فقد كانت ماريا قد بدأت تخطف قلبي وناظري من حيث الإعجاب بها، فتعلقت بالمكان أكثر بسببها، وهو ما جعلني أتقبل أمر الهاتف الجوال الجديد، على أمل أن هذا الإعجاب الحقيقي قد يساعد في حمايتي مما قد وقعت فيه.

****

فات الأوان

فتحتُ الورشة ودخلت، وإذا بي أرى صدمة عمري، وجدتُ أبي مضرجًا بدمائه، والمنشار الكهربائي ما زال يعمل. لم أستوعب الموقف لوهلة، فعندما رأيتُ أبي مصابًا في رسغ يديه وينزف منهما، علمتُ أنه اتصل بي؛ لأني أنا الوحيد الذي معه مفتاح الورشة. اعتقد أبي أني قريب من الورشة؛ بعد انتهاء المحاضرات، وظن أن باستنجاده بي سأساعده على الفور، لكني كنت أرى الاتصال ولم أجبْه.

اتصلتُ فورًا بالإسعاف، وبعد وصولهم أخذوا أبي إلى المستشفى، في الوقت الذي وصل فيه الخبر إلى أمي وأخي محمد، بينما كان جمال حينها يقضي خدمته في الجيش فلم نُرد أن نُخبره. وظللنا على أعصابنا حتى طلبوا منا تبرعًا بالدم المتوافق مع أبي، ولأن فصيلته (O سالب) فهو لا يقبل إلا من نفس فصيلته. حاولنا جاهدين البحث عن تلك الفصيلة ولكن سبق السيف العزل، وأتى الخبر من الأطباء:

(عملنا اللي علينا لكن الأعمار بيد الله، البقية في حياتكم).

تُوفي أبي، تُوفي نتيجة نزيف حاد بقطع من رسغ اليد وتأخر نقله إلى المستشفى، ولم يكن أحد يعلم أنه قد اتصل بي عدة مرات لنجدته، وأنا لم أجبْه، ولم أستطع أن أبوح لأحد بالسبب الذي جعلني لم أجبْه. كان اعتقادهم أني وصلت إلى الورشة في ميعادي الطبيعي ووجدته كذلك ثم نقلته إلى المستشفى، وبرغم عدم معرفة أحد بهذا الأمر، لكنه كان سرًا ثقيلًا على قلبي، أعلم أنه سيراودني في كوابيسي كثيرًا في قادم أيامي.

بعد وفاة أبي تغيّر حالنا تمامًا، لقد انطفأت شمعة البيت. أمي كأنها كبرت عشرين عامًا دفعة واحدة، وما كان من أخي محمد إلا أن انتظر أخي جمال بعد الإجازة الاستثنائية من الجيش بسبب وفاة والدي، خصوصًا أنه قد اقترب بالفعل من إنهاء مدة خدمته، إلا أنه فتح موضوع الميراث معي أنا وأخي جمال في حضور أمي، التي كانت حاضرة جسدًا فقط. فتحدث محمد قائلًا إن الشرع يُلزم ضرورة تقسيم الميراث، فما كان من أمي إلا أن قالت:

- لا أريد من الميراث شيء، قسموه بينكم.

ثم تركتنا ودلفت إلى غرفتها، أما أخي جمال فرد على أخي محمد بعصبية لم أعهدها عليه من قبل قائلًا:

- أي ميراث الذي تتكلم عنه؟ أتظن أن أباك خلّف لنا ڤيللًا وأطيانًا؟ ما هو إلا البيت الذي يأوينا والورشة التي ربتنا وسيارته.

فما كان من أخي محمد إلا أن قال بهدوء:

- وهذا هو المطلوب، نقسمهم علينا.

وما زال عقلي متوقفًا عند اتصال أبي الذي لم أرد عليه، ولم أُبالِ لما يقولون، فاتبع محمد قائلًا:

- أنا آخذ السيارة، فهي كل عملي، وأنت موظف، تأخذ الشقة لتراعي أمك معك فيها، وعلى أي حال أنت موظف، وصهيب يأخذ الورشة؛ لأنه أكثر من عمل بها ويفهمها ويعرف كيف يديرها.

بعد مناقشة دامت بينهم، ولا أعرف كم من الوقت استغرقت، لما أنا فيه من توهان في اتصال أبي، الذي ظل يتصل ويتصل ويتصل حتى انقطع الاتصال إلى الأبد، فقاطع هذا التوهان قول أخي جمال:

- وما رأيك يا صهيب؟

فلم أستطع قول شيء غير أني قلت له:

- ها... افعلوا ما يحلو لكم.

ثم تركتهم وغادرت...

****

بعد انتهاء أخي جمال من الجيش وعودته لوظيفة التدريس مرة أخرى، فهيئته أصبحت هيئة مدرس فعلًا، كما أصبحت هيئة محمد سائقًا بامتياز. فما كان من أمي إلا أن ألحّت على أخي جمال بعدم تأخير موعد زواجه، ويكون كما هو، بينما كان أخي مُصرًّا على التأجيل بسبب عدم مرور مدةٍ كافية منذ وفاة الوالد، فما كان من أمي إلا أن قالت له: أنا أكثر من عايشتُ أبيك، وأكثر حُزنًا عليه، ولكن هو نفسه إن كان موجودًا لزوّجك، وإن كنت تريد أن تُرضيني فلتتزوج.

كان أخي جمال رقيقًا تجاه أمي فلم يرفض لها طلبًا، وعرضت أمي عليه أن يتزوج هو في الشقة على أن أذهب أنا وهي لاستئجار شقةٍ أصغر في مكان قريب، لكن جمال أصر أن أمي تقيم معه وإلا لن يتمم الزواج، فما كان مني إلا أن بادرت أني سأقيم في غرفة أبي القديمة في الورشة، ومع اعتراض جمال وأمي، ولكني أحببت أن أهون عليهم فقلت لهم: مجرد فترة مؤقتة.

هدأت الأمور قليلًا، خصوصًا أنهم كانوا مشغولين بالفعل بالتحضير لزفاف جمال، فما كان مني إلا أن عدتُ للورشة وهيّأت الغرفة التي كان يقيم فيها أبي داخل الورشة عندما ترك أهله، وأعدت نفس نمط الغرفة كما كان قديمًا، وكتبت على الجدار (ما أشبه الليلة بالبارحة).

****

التحقتُ بالعام الأخير في الكلية بأعجوبة، برغم هذه الظروف اللامنطقية التي أحاطت بي في السنة السابقة، وما كان مني إلا أن أذهب للكلية وأعود للورشة التي لم أفتحها منذ زمن، ولا أدخلها إلا للوصول لغرفتي بالداخل التي تحتوي على الأشياء التي نقلتها من شقتنا، فما أخذتُ إلا سريري ودولابي وكمبيوتر المذاكرة الذي اشتراه لي أبي.

ألحّت أمي عليّ كثيرًا، وقبلها أخي جمال، أن أعود معهم في الشقة مرة أخرى، ولكني رفضت، فالشقة كافية جدًا لهم، والغرفة الفارغة تكون لأبناء جمال إن شاء الله، بالإضافة إلى أني أحببت عزلتي ووحدتي، فبعد وفاة والدي بهذه الطريقة لم أعد أستطيع النوم كثيرًا، بل إني أستيقظ مفزوعًا في العديد من الليالي، ولم أحب أن يشعر بي أحد في مثل هذه المواقف.

لم تكن السنة النهائية في الكلية خيرًا من سابقتها، فكل عام يأتي يكون أثقل من ذي قبل، ولكن كانت كل أمنيتي أن أتخرج ولو مجرد صورة أمام أمي حتى أعوضها ولو شيئًا مما خذلتها فيه سابق الأيام، لكن كلما كنت أنغمس في وحدتي وعزلتي أكثر، كلما كان الهاتف والكمبيوتر يسيطران عليَّ أكثر، ولا أعرف كيف الخلاص مما أنا فيه.

****

حب من النظرة الأولى

كانت ماريا مميزة في كل شيء، فقد كانت هادئة كشوارع روما القديمة، وذات ابتسامة دافئة كشمس نابولي الذهبية، ذات عينين زرقاوين كغابات توسكانا العميقة، وشعر بني مربوط خلف رأسها كزهور فلورنسا. رأيت في ماريا رحلتي، وتقلباتي، وحكمتي، وإرهاصاتي، وبرغم أني كنت قد أتقنت الإيطالية مثل السكان الأصليين، لكن مع ماريا كنت أتحدث بإيطالية مكسرة مثل التي كنت أتحدث بها عندما وطأت قدماي جزيرة لامبيدوزا.

****

بعد عدة مرات من تسليمي الطلبات لماريا، أمرني والدها بالذهاب معها للتسليم. كانت هي تسلم الطلبات وتقود السيارة أيضًا، فقد كانت مُحبة جدًا للقيادة.

كنت كلما ركبت معها السيارة أتصبب عرقاً كطفل صغير. لم أرد أن أسترق النظر إليها كي لا تفضحني نظرات الإعجاب التي كنت أكتمها حتى لا تلاحظ ماريا، أو كنت هكذا أعتقد أنها لم تلاحظ. كنا كلما وصلنا إلى مكان التسليم ساعدتها في حمل بعض الأخشاب وترتيب الطلب القادم، وكانت بعد كل فعل من تلك الأفعال تقول لي

"جراتسيه" وهي تعني شكرًا بالعربية. كنت أرد عليها بالكلمة الوحيدة التي أعرفها في الإسبانية "جراسياس". كنت أعتقد أنهم مثلنا نحن العرب عندما ندمج بعض الكلمات الأجنبية في حديثنا بالعربية دلالة على الثقافة، لكني عرفت بعد ذلك أن هذا الأمر ليس محببًا عندهم، فقد كانوا يرونه عدم اعتزاز بلغتهم الأم، واستغربت أن نفس الفعل نراه نحن العرب دلالة ثقافة وليس دلالة ازدراء للغتنا الأم العربية (لغة القرآن).

كنت أقوم بالعمل مع ماريا يومًا أو يومين في الأسبوع، وباقي الأسبوع في الورشة، لأن فرانشيسكو لم يكن يستطيع أن أغيب عنه كثيرًا، فقد كان دومًا يذكرني بأني يده اليمنى في هذه الورشة، وأنه كبر في السن وأنه يعتمد عليَّ في كل شيء. كنت لا أريد أن أخيب هذه الثقة. كنت أحيانًا آخذ الطلب من العميل وأُبلغ ماريا بموعد انتهائه وأذهب معها لتسليمه، فكنت أبدأ العمل من أوله لآخره.

وفي أحد المرات طلب مني أحد العملاء تصميم طلب معين من نوع خشب محدد باهظ الثمن، وأعطيت ماريا موعدًا لتسليمه. لكن بعد مراجعة المخزون لم أجد الكمية المطلوبة للتنفيذ، مما جعلني أتأخر في تنفيذه. كان من الممكن إضافة بعض العوارض الخشبية من نوع آخر بدون أن يلاحظ العميل، ولكن للحفاظ على الأمانة انتظرت حتى أتى خشب جديد من نوع الخشب الذي طلبه العميل،

مما جعل ماريا تعتقد أني تكاسلت في التنفيذ. عند إبلاغ والدها أرسل إليَّ في حضور ماريا، فشرحت لهما الموقف فزادت ثقته بي وبصدقي وأمانتي. كنت أول مرة أرى نظرات الإعجاب في عيون ماريا تكبر يومًا بعد يوم.

بعد هذا الموقف بعدة أيام دعاني فرانشيسكو لتناول العشاء معه في شقته. كانت المرة الأولى التي أصعد فيها للشقة منذ أن وطأت قدماي هذا المكان. صليت العشاء في غرفتي المطلة على الحديقة ثم صعدت إلى الشقة. استقبلني فرانشيسكو بترحيب كبير. جلست معه على انفراد وظل يذكر ويُعدد الموقف تلو الموقف الذي جعله يراني شخصًا جديرًا بالثقة. أخرج من جيب بنطاله مفتاحًا وقال لي:

-"هذا مفتاح الورشة، فأنا لم أجد شخصًا أجدر منك بتلك المسؤولية."

كان فرانشيسكو لا يعطي مفتاح الورشة لأحد أبدًا مهما طالت مدة عمله معه.

بعد مدة خرجت ماريا لوضع العشاء على السُفرة، وكنت أول مرة أراها بزي منزلي بسيط الهيئة غير الذي كانت ترتديه أثناء العمل، فقد كان أقرب للعمال أكثر منه للفتيات. أعجبت بها كثيرًا. كنت أراها جميلة الجميلات في زي العمل، فما بالك عندما رأيتها في منزلها

بالجمال الفطري البريء، وظللت أفكر بها كل وقت وكل لحظة وأسأل نفسي كثيرًا: "هل يمكن؟."

****

وما إن انتهينا من تناول العشاء عدت مع فرانشيسكو لصالة الاستقبال، إلا أني طلبت منه بشكل مباشر أن أتزوج ماريا، برغم أن فرانشيسكو لم يكن ينظر لي كموظف فقط، كان يعتقد أني خليفته في الورشة. أعتقد أنه لم يطرأ على خاطره أمر الزواج من ابنته بتاتًا. لإنهاء الأمر تركت له الحرية في موعد الرد، ثم قمت استأذنت وانصرفت.

****

بداية الحدوتة

أخرج أبي تنهيدة من داخل أعماقه عند سماع خبر حمل أمي، وعلى عكس عادته في مسايرة الأمور التي يقدرها الله عز وجل، لكنه تذكر أنه ما زال في تجارة جديدة بجوار ورشته لكي يوازن أمور المنزل من متطلبات وغيره، وما إن بدأت الأمور تتسم بشيء من التوازن، فإذا بأمي تحمِل بي ليبعثر هذا الخبر كل الأوراق والتخطيط الذي خططوه، وليصرف أبي عنه هذه الوساوس ويتذكر أنه لا بد أن يكون داعمًا لأمي في هذه المرحلة العصيبة، حتى لو كان هو في حاجة لمن يدعمه، ومع ترديد أبي في ذهنه مقولة "أنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد"، إذ بأمي تخرج من دورة المياه الخاصة بمعمل التحاليل بعينين حمراوين كالدم، وهو ما أكد لأبي أن المهمة هذه المرة لن تكون كسابقتها، مثل الحمل في أخي جمال الذي كان يسيرًا جدًا ولم يشعروا بأي معاناة فيه.

أقبل أبي على أمي واحتضنها وهي تبكي مع استغراب كل من في المعمل، فمن المفترض أن من يأتيه خبر حمل يكون سعيدًا، وأخذ أبي أمي عائدًا للمنزل، وما إن دخلوا المنزل ذهب أبي للنوم دون أن ينطق ببنت شفة.

استيقظ أبي قبل صلاة الفجر، أيقظ أمي، جلس معها في أوقات السحر هذه وقال: "أتمنعين أمرًا الله أمر به؟" قالت: "لا والله." قال: "إذًا نحن منعنا بإرادتنا، والله أمر بإرادته، والله عز وجل تغلب إرادته الجميع، فما يأتي من الله أنا راضٍ به." قال لها كلمة ظلت عالقة معها كثيرًا: "أنا مضيت على بياض للرضا لله عز وجل." قالت أمي: "ونِعم بالله."

تمنت أن تكون هذه المرة أنثى، ففي الغالب هذا الحمل سيكون الأخير، فصحتها وجسدها الهزيل لن يقويا على الحمل مرة أخرى. لقد تناولت أمي أثناء الحمل بي مقويات أكثر مما تناولته في أخوي مجتمعين، برغم أني لم أكن كثير الحركة في بطنها مثل محمد، ولا هادئًا تمامًا مثل جمال، فكنت وسطًا حتى بين شخصيتيهما، برغم أني كنت الأخير في الترتيب أو كما يُطلق عليه "آخر العنقود".

مرت مراحل الحمل كلها وأمي تعد الأيام لكي تنتهي من هذه المرحلة التي أتت لها على فجأة وبدون تخطيط مسبق، كما هو حال الأيام بحلوها ومرها. مرت أيام الحمل، وولدتني أمي في جو شديد الحرارة على العكس تمامًا من الأجواء التي سمعت فيها خبر الحمل بي. كعادة أبي في ترك أمي حرية اختيار اسم المولود، وعلى النمط السائد لأمي أن تختار كل اسم لسبب، فكما كان اسم أخي محمد على اسم النبي صلى الله عليه وسلم، كان اسم أخي جمال على اسم أبي.

استبشرت أمي بالتجارة التي كان قد شرع فيها أبي، وأسمتني صهيبًا تيمُنًا بالصحابي الجليل والتاجر الفذ صهيب الرومي، لعل الله أن يجعل في الاسم خيرًا ويبارك في تجارة أبي ويعطيني من بعض صفات صاحب الاسم الذي تسميت به.

وعند ولادتي كان أخي محمد قد أكمل الأربع سنوات، وأخي جمال بالكاد أكمل الثالثة.

****

بعد ولادتي لم يتغير نمط البيت كثيرًا، فالاهتمام بالطفل الثالث لا يعد من ضمن أولويات الشغف المرتقبة للأسرة مثل الطفل الأول مثلًا، خصوصًا إن كان قدوم هذا الطفل غير مرغوب به من الأساس، لكن أكثر من كان سعيدًا بولادتي هو أخي جمال، أو على الأقل لاحظت ذلك ظاهريًا في أول أيام وعيي، فسعادته بأن أصبح له أخ أصغر كانت طاغية على ملامحه الصغيرة دائمًا، فكان يلعب معي أكثر بكثير من أخي محمد الذي شعرت أن رغبته في عدم مجيئي كانت أكبر من أبي وأمي مجتمعين.

حتى بعد دخولي المدرسة، شعرت أن محمد له كينونته الخاصة، أو هكذا أراد أن يُظهر لي، من أصدقاء مختلفين عن أصدقائي أنا وجمال، فعندما كنتُ أنا في الصف الأول الابتدائي، كان قد دخل أخي محمد الصف الخامس، وجمال التحق بالرابع الابتدائي، وكلنا كنا

ملتحقين بالمعهد الأزهري القريب منا، وهذا بناءً على رغبة أبي أن يصبح أبناؤه جميعًا من خريجي المؤسسة الأزهرية، أو هكذا أعتقد.

كنت دائم الذهاب بعد المدرسة إلى ورشة أبي، ولم يكن أبي يعارض ذلك، فقد كان دائم النصح لي عن تجاربه في التجارة، وكيفية اتساع الأفق والنظرة المستقبلية للأمور، برغم أن أغلب الكلام كان يبدو ظاهريًا أكبر من استيعابي، لكن استماعي له كثيرًا زاد من وعيي وإدراكي بحقيقة الكثير من الأمور، إن الحياة الحقيقية ليست هي نظرة ذلك الطفل الذي يخطو خطواته الأولى في مراحل تعليمه الأساسي، يبدو أن أبي كان يلمح لذلك قاصدًا، ففي الفترة التي عجز أبي أن يضم أخي محمد للعمل معه في الورشة، تارة بالترغيب وتارة أخرى بالترهيب، لكن كان محمد لا يحب مجال عمل أبي إطلاقًا، كان دائم التذمر على مستوانا المعيشي، كان يرى دائمًا أن هناك كثيرين يبذلون مجهودًا أقل ويجنون أموالًا أكثر، برغم أننا نقوم بعملين، بأعمال النجارة في الورشة من جانب، وتجارة الأخشاب من جانب آخر، برغم ذلك مستوانا بالكاد نعيش.

كانت رؤية أخي جمال مختلفة تمامًا عن رؤية محمد، فقد كان جمال ممتنًا لأبي على جهده وبذله وسعيه من أجل أن يكفينا لقمة العيش التي لا يجدها كثير من الناس، برغم عدم انجذاب أخي جمال أيضًا للمهنة كثيرًا، لكنه لم يتأخر في تنفيذ أي أمر من أوامر أبي للعمل

في الورشة أو غيرها، خصوصًا منذ فتح كرم، مساعد أبي، ورشته الخاصة به في بلد مجاورة، عاد أبي للعمل بمفرده في الورشة، فقد كان أخي جمال عاطفيًا حنونًا، ذو مشاعر فياضة يغمُر بها جميع من حوله، يستوعبهم ولا يحب أن يغضب منه أحد حتى ولو على حساب نفسه وراحته، كان يلبي أوامر أبي بحذافيرها، خصوصًا التي كانت خاصة بالعمل في الورشة التي لم يكن يتقنها كثيرًا، فلم تكن هوايته النجارة أبدًا، هذا ما لاحظه أبي، على عكسي تمامًا، فقد كنت أحب العمل في الورشة، وكنت كثير السؤال لأبي عن دورة العمل في الورشة، وأنواع الخشب التي نعمل فيها، التي شرح لي أبي أننا نعمل في أغلب أنواع الأخشاب، لكن أكثرها تداولًا خشب الزان والبلوط والموسكي واللاتيه.

مثل هذه الأسئلة والتواجد الدائم بجوار أبي في الورشة ما جعلني أبدأ في الاندماج مع أعمال أبي داخل ورشته، هذا ما لاحظه أبي عندما بدأت بتجميع بعض القطع الخشبية المتناثرة في الورشة وتنسيقها وتجميعها بشكل هندسي بسيط على هيئة كرسي صغير أو ترابيزة متواضعة باستخدام أدوات النجارة البسيطة، هذه المنجزات البسيطة هي التي لفتت انتباه أبي أن تواجدي معه في الورشة ليس مجرد تضييع وقت لطفل، بل أن هناك موهبة كبيرة في طور الظهور للأضواء، ما أكد لأبي ذلك أني في الصف الرابع الابتدائي أقاموا في المدرسة مسابقة إبداعية، وهي أن يقوم كل طالب بإبداع شيء من

مخيلته، فما كان مني إلا أن جمعت بعض الأخشاب من الورشة وقمت بعمل هيكل مسجد بشكل هندسي بديع، جعلني آخذ شهادة تقدير من المدرسة على ذلك.

بعد تأكد أبي من موهبتي في النجارة بدأ شيئًا فشيئًا أن يسند لي بعض المهام سواء داخل الورشة أو بعض الأعمال المرتبطة بالورش الأخرى حتى أصبحت اليد اليمنى لأبي في الورشة، فترك أخي محمد ليركز في دراسته ولم يعد يطلبه لأي أعمال في الورشة، وكان أخي جمال حينها كما كنت أنا اليد اليمنى لأبي، فكان هو اليد اليمنى لأمي، فأي طلبات أو احتياجات لأمي لم يكن يتأخر عليها، فقد كان بارًا بها للدرجة التي جعلته يأتي بالشيء قبل أن تقوله هي، فهو يفهم من خلال عينيها ماذا تريد، وكان ملازمًا لأمي في عديد من الأمور عكسي تمامًا، فقد كنت مثله ولكن مع أبي، نعم كنت أحب أمي بالطبع، لكن تعبير هذا الحب كان واضحًا جليًا من جمال أكثر مني كثيرًا، وبالطبع أكثر من محمد الذي لم يكن يبدي ذلك الحب لا لأمي ولا لأبي.

لم أكن أعرف هل هذا جفاء أم أنه يحبهم داخليًا ولا يستطيع أن يظهر لهم ذلك، لكن لم تتحين فرصة حتى يهدم أخي محمد هذا الاعتقاد، فقد كان صلبًا في كلامه مع أمي وأبي، ومشاعره كالصخر الصلب، لم أرَ يومًا فيه حنانًا على والديه ولا إخوته، وكنت أرى أنه

يعتقد أن ذلك من لوازم الرجولة، فلم أره يبكي يومًا ولا يحضن أمي أو أبي مرة، لكن ليست هذه الرجولة التي أعرفها، فالرجل حقًا هو من يتحين فرصة الانزواء تحت جناحي والديه ليشبع منهما في حياتهما أو على الأقل يتلاطف معهما في المشاعر والكلام. قد كنت أستعجب لذلك، فقد كان أخواي متضادين في إظهار مشاعرهما تمامًا، فمحمد كان أقصى اليسار، عكس جمال الذي كان أقصى اليمين وخصوصًا مع أمي، وعندما تفكرت في نفسي وجدتني وسطًا، لست مثل هذا ولا ذاك.

ما إن وصلت للمرحلة الإعدادية كان أخي جمال وصل للمرحلة الثانوية، وكان سبقه محمد بعام في نفس ذات المرحلة، وحينها كنت قد تعلمت كل شيء داخل الورشة تقريبًا، وبدأت أقوم بأعمال النجارة بمفردي تقريبًا، وهو ما جعل ورشتنا وتجارتنا تبدأ في الازدهار بشكل لافت، مما دفع أبي لشراء سيارة خاصة بنقل الأخشاب لتكون تحت تصرف الورشة، لتوفير المبالغ التي يتم نقل بها الأثاث أو توزيع الأخشاب، كانت السيارة غالية حقًا، فلم يستطع أبي شراءها دفعة واحدة، فقد كانت توازي سعر شقتنا وتزيد عن ثمن معدات الورشة مجتمعة، فقام أبي بتجميع المال الذي ادخره الأعوام الماضية ودفع مقدم السيارة، على أن يدفع الباقي من سعرها على شكل أقساط.

وما إن أتت السيارة إلى الورشة إلا وأتى معها محمد الذي لم تخطُ قدماه الورشة منذ سنوات، فقد كان محمد يعشق السواقة بكل أنواعها من الدراجات البخارية للحافلات، ولم يكن يتحين مثل هذه الفرصة إلا ليتودد لأبي لكي يجعله يقود السيارة، رغم تحرز أبي في البداية، لكنه كان يعلم مهارة محمد في السواقة منذ نعومة أظافره، وكان يقود بعد ذلك سيارات أصدقائه عندما يأخذونها على فترات من آبائهم.

اعتقد أبي أن محمد أخي سيقوم بقيادة السيارة على أن يظل يأخذ مصروفه العادي من والدي، لكنه اتفق مع والدي أن يأخذ راتبًا كما لو أتينا بسائق خاص، وهو ما استنكره أبي في البداية، على أن رجع فيه بعد تفكير، أنه إذا جاء بشخص قد يأخذ أكثر مما سيأخذ محمد، وقد لا يكون أمينًا مثل أخي أو في حرصه على البضاعة، مع الاتفاق مع محمد على أن يكون الحساب بالمشوار، وكل مشوار له تكلفة محددة، وهو ما وافق عليه أخي محمد.

ومن هنا بدأ العمل على سيارة الورشة على فترات عندما يطلبه أبي، وهو ما جعل أبي يرسلني في بعض المشاوير للورش القريبة توفيرًا لنفقات السيارة، وعندما بدأت أذهب إلى الورش المجاورة لاحظت أن الأطفال في هذه الورش كثيرون من سني وأصغر مني وأكبر مني،

عكس ورشتنا التي كانت مقتصرة عليّ أنا وأبي فقط، قبل أن يلتحق بنا أخي محمد على فترات لقيادة السيارة عندما يطلب أبي.

بدأت أذهب إلى هذه الورش بكثرة في نهاية المرحلة الإعدادية، حينها كان أخي محمد التحق بالمعهد الفني التجاري بعد الثانوية العامة، مدته عامان، فمحمد لم يكن متفوقًا دراسيًا مثلما كان متفوقًا في قيادة السيارات، عكس أخي جمال الذي كان حينها في العام الأهم في مسيرته العلمية. الثانوية العامة الأزهرية. كان أبي وأمي معلقين آمالًا كبيرة عليه نظرًا لإحساسهم أن فيه أملًا أكبر من محمد في الجانب التعليمي.

كنت كلما ذهبت إلى أي ورشة وجدت هذا العدد الكبير من الصبية، فأغبطهم على جلساتهم مجتمعين. كنت كلما ذهبت وجدتهم يضحكون ويتسامرون أو هكذا كنت أظن، فبعد ذلك عرفت أنني أذهب أغلب الأوقات في ساعة الراحة، وما إن بدأت أذهب في مواعيد مختلفة إذ انجلى لي أن وجود مثل هذا العدد ليس إيجابيًا، فعيوبه أكثر من مميزاته، فمرة وجدت بعضهم يدخن السجائر، ومرة وجدتهم يمزحون مع بعض بأسوأ الألفاظ، وهو ما صدمني كثيرًا، فضلًا عن أن الأذان يؤذن ولا يذهب أغلبهم للصلاة، وهو عكس ما كان أبي يقوم به من غلق الورشة تمامًا عند سماع الأذان، وبرغم عدم اتفاقي معهم في أغلب تصرفاتهم، لكن بحكم أن منهم كثيرون

في نفس عمري، تعرفت على بعضهم، لكن لم أجد منهم أحدًا معي في الأزهر، فأغلبهم كانوا في التعليم العام، كنت قد ارتبطت مع بعضهم برابطة صداقة أكثر من البعض الآخر، برغم أني وجدتهم مختلفين عني كثيرًا، ولكني أحببت أن أجد أصدقاء مقربين عندما أذهب لهذه الورش.

وهو ما حدث عند انتهاء المرحلة الإعدادية، فقد كنت جمعت بعض الصداقات منهم، مع بداية مرحلة الثانوي كان أخي جمال قد التحق بكلية التربية جامعة الأزهر قسم اللغة العربية، وهو ما كان يطمح أبي وأمي في أكثر من ذلك، لكن ارتضوا بما حققه، خصوصًا أن كلية التربية ليست بالأمر الهين الالتحاق بها، كان حينها أخي محمد في سنة التخرج من معهده، ومع بداية مرحلتي الثانوية كنت أتحرك بحرية أكبر وبثقة من أبي، فقد كنت أذهب لتلك الورش في غير مواعيد العمل وبدون أن يرسلني أبي، بحكم أني كونت صداقات هناك، ما كنت أرفضه بشدة أن أجلس مع شاب في عمري في المرحلة الثانوية ويشرب السجائر، لم أعد أنفره، نعم لم أشرب معهم، لكن الألفاظ السيئة التي كنت أنكرها عليهم سابقًا أصبحت أستمع لها وهم يقولونها لبعضهم وأنا جالس غير مبالٍ، لدرجة أن أبي أصبح يستطيل غيابي عندهم، وعندما يسألني أصبحت أرد عليه بحجج واهية لم أكن أنا مقتنعًا بها من الأساس، فهي على عكس شخصيتي، فلم أتعوّد أن أكذب منذ طفولتي، لكن جلوسي مع

أصدقائي الجدد هون الأمر في نظري كثيرًا، في مرة من المرات المتتالية التي أذهب فيها للجلوس معهم وجدت ورشتهم ساكنة، فعلمت أن معلم الورشة غير موجود، وجدتهم منزوين في أحد زوايا الورشة مع هاتف جوال يمسكه أحدهم، وكانت تلك الفترة غير منتشرة فيها الهواتف المحمولة، لدرجة أن شابًا في ورشة يمتلك واحدًا، فاعتقدت أنهم يستكشفون الجهاز الجديد، أو أنهم يشاهدون أهداف مباراة، أو مقطعًا من فيلم أجنبي جديد. برغم أني لست من هواة الأفلام، غير أني من محبي مشاهدة كرة القدم، فأخذني الفضول لأرى ماذا يشاهدون.

****

اقتربت منهم، كانوا ما زالوا لم يشعروا بقدومي، فكانوا أكثر تركيزًا للنظر في الهاتف أكثر مما رأيتهم عندما ينظرون إلى الأخشاب في العمل، بالاقتراب أكثر شعرت ببرودة في أطرافي مما رأيتهم ينظرون إليه في الهاتف الجوال، فقد كنت أعرف بعض الأمور الثقافية الجنسية، لكن لم أكن متعمقًا فيها للدرجة التي تجعل الذكر رجلًا والأنثى امرأة، فكانت ثقافتي ضحلة بشكل كبير في هذا المجال، هذا مما زاد صدمتي أن أرى مشاهدًا جنسية صريحة يتداولها بعض المراهقين هكذا على العلن، وصدمتي هذه ما جعلتني أرفع صوتي

وأنهرهم، وهو ما زاد الطين بلة، أني لم أجدهم يتنكرون للفعل وكأنه عادي، وبدأوا يبررون أن هذه المشاهد يراها كل الصبية في الورش التي تذهب إليها، برغم عدم تصديقي لهم في بداية الأمر، لكني لم أرد أن أجلس معهم ذلك اليوم، فلقد اشمأززت منهم غاية الاشمئزاز، على غير العادة لم أعد لورشتنا، لكن عدت للمنزل باكرًا على غير العادة، وهو ما لاحظته أمي، فأبلغتها أني مرهق اليوم قبل أن تبادرني هي بالسؤال عن سبب عودتي باكرًا.

ذهبت إلى سريري لكي أنام، لكن لم تذهب المشاهد التي رأيتها عن مخيلتي أبدًا، فقد كانت بالغة الصدمة، لذلك النوم لم يعرف لي طريقًا في تلك الليلة، كنت أعتقد أن تلك المشاهد لا تحدث إلا بين الرجل وزوجته في الغرف المغلقة وبعيدًا عن أعين الناس، ظللت أتساءل بفطرتي البشرية الطبيعية كيف ذهب الحياء إلى الدرجة التي جعلت صنفًا من البشر يتاجر بجسده كسلعة أمام الناس، وصنفًا آخر يشاهد ذلك مستمتعًا وكأنه لا يرى ما يستوجب سخط الله عز وجل، ولا أتذكر كم الأسئلة التي طرحتها على نفسي تلك الليلة حتى نمت.

لا أعرف لماذا عند ذهابي لورشتنا انتظرت ساعة الراحة للذهاب لذات الورشة التي شاهدت فيها الشباب أمس، كأن على رأسي الطير، لكن هذه المرة كان مفعول صدمة أمس ليس بهذه الدرجة، حتى

عند دخولي ورؤية انزوائهم مثل أمس لم أنكر عليهم ولم أنهرهم، لكن جلست على طرف بعيد أسترق النظر إلى ما يشاهدونه، وهو ما دفع أحدهم لجذبي بحجة أننا كلنا شباب ورؤية هذه الأمور تزيد من ثقافتك الجنسية، وأن هذه الأمور ستحتاجها بعد ذلك، برغم ضميري الذي كان يدفعني للهرب من المكان، كان شيء آخر يشدني للبقاء، لا أعلم هل هو حب الاستطلاع المهلك أم نفسي الأمارة بالسوء؟ لكن بعد صراع داخلي مستميت بقيت، شاهدت، وصدمت مرة أخرى، هذه المرة لم أصدم من المشاهد بقدر صدمتي من بقائي ومشاهدتي معهم، وهو ما جعلني لليوم الثاني على التوالي لا أذهب لورشتنا، وأعود إلى المنزل شارد الذهن أحاول أن أستوعب ما فعلته. أنا صهيب حافظ القرآن دائم التردد على المساجد، أفعل هذا وأشاهد هذه القاذورات، بل إنها بلغت من نفسي مبلغًا بتقبلها شيئًا فشيئًا، كان أكثر ما ينفرني منها ذلك الوقت الوازع الديني بداخلي، ويصارعه فترة المراهقة التي أعيشها، قد كانت فترة بالغة الصعوبة، لم أكن أعلم بعد أني على طريق التوغل في إدمان من أخطر أنواع الإدمانات السلوكية.

****

عند دخولي للصف الثاني الثانوي كان أبي يعلّق آمالاً كبيرة على أن أدخل كلية الهندسة، فقد كانت عقليتي في حلّ مسائل الرياضيات فذّة بامتياز، كان يريد مني أن أقلّل من ذهابي للورشة لعلّ التركيز أكثر في الدراسة يؤتي بنتائجه، وهو ما كنت أرفضه كثيرًا لحبي الظاهر للذهاب للورشة، ونيّتي الباطنة للذهاب لرفقاء الإدمان على المشاهدة، الذين أصبحوا أحد الأساسيات في يومي، لدرجة أنهم لم يكتفوا بانغماسي في هذا الإدمان، بل أخبروني بالكارثة المكمّلة للإدمان وهي العادة السرّية - الاستمناء -. لم أكن أستوعب في البداية ما يقولونه، حتى قرّرت أن أجرّب بنفسي، وعند تجربتي لأول مرة اعتقدت أن روحي تُسلب مني، وهو ما أكمل عندي الدائرة الشيطانية لإدمان المشاهدة ثم ممارسة العادة السرّية. حينها استغللت طرح أبي عليّ شراء أي شيء يساعدني في مذاكرتي، طلبت هاتفاً جوالاً، ومع استغراب أبي وسؤاله عن السبب، قلت لكي أذاكر عليه، فاقترح أبي أن يشتري لي كمبيوترًا في المنزل لآتي عليه ما أريد أن أذاكره، وبرغم تحجّجي أني أريد أن أذاكر في الورشة والهاتف الجوال يكون أسهل في التنقّل، فما كان من أبي إلا أن أخبرني ألا أحمل همّ الورشة وأركّز في مذاكرتي فقط، واشترى لي الكمبيوتر، وضعه في غرفتي وبشّرني أنه في حالة دخولي الهندسة سيشتري لي الهاتف الجوال الذي أريد.

أحزنني كثيرًا أن أرى أبي يجتهد في شراء كمبيوتر جديد لي من أجل أن أجتهد في الدراسة وأنا نيّتي أمر آخر، كان هذا يؤلمني داخلياً، لكن كلما أردت الابتعاد عن تلك المشاهد لا أعرف لماذا أعود مرة أخرى؟ كأني مسلوب الإرادة، غائب الوعي، وما إن أتى الكمبيوتر إلى منزلنا كنت أتحيّن أي فرصة من أجل الانقضاض عليه كما ينقض الأسد على فريسته، لم أكن أعلم بعد أنني أنا الفريسة.

لم يكن الإنترنت "الواي فاي" منتشرًا بالشكل الموجود عليه الآن، فقد كانت أغلب ما أشاهده على أسطوانات "سي دي" من صُحبة الورشة، كنت أخفيها كلما دخلت المنزل في وسط الكتب الدراسية كأني أحمل سرًا عسكريًا، ويا ليت هذا التركيز كان منصرفًا للدراسة لكنت في تعداد الأوائل، لقد سلب مني هذا الإدمان التركيز في الدراسة والهدف الذي وضعته منذ زمن وعاهدت أبي وأمي عليه، وهو أن ألتحق بكلية الهندسة.

كنت كلما وقعت في الإدمان ومارست العادة السرّية أقوم لأغتسل حتى أكون صالحًا للصلاة، وهو ما تبقّى مني مما قبل الإدمان، وبرغم كل ذلك الانغماس ظللت محافظًا على صلاتي، حتى لاحظت أمي دوام تردّدي على دورة المياه للاستحمام، وهو ما جعلني أقوم بالكارثة الكبرى التي لم أتوقّع أن أصل لهذا المستنقع يومًا، بدأت أترك صلواتي، وبدأت خلواتي تُصبح انتكاساتي، وما كان يؤلمني حقًا

أن أبويّ كانا يعتقدان أنني أجتهد في دراستي، لكن على النقيض كنت كل يوم أنغمس أكثر في هذا الإدمان الشهواني بلا نهاية.

في هذه السنة تخرّج أخي محمد من المعهد الفني التجاري، وأصبح لدينا فرد من العائلة خارج أسوار العملية التعليمية. برغم أن أبي كان يطمح أن يكون ثلاثتنا من خريجي جامعة الأزهر، ولكن المستوى الدراسي لأخي وتركيزه أكثر في قيادة كل أنواع السيارات، لدرجة جعلت أكبر همّه استخراج رخصة قيادة درجة أولى لتكون مهنته في بطاقة الرقم القومي "سائق"، فجعل أبي يرتضي بما وصل إليه وأوكله العمل على السيارة الخاصة بالورشة، خصوصًا بعد أن لم يصبه الدور في التجنيد في الجيش وحصل على تأجيل لمدة ثلاث سنوات، وهو ما يحصل على إعفاء نهائي عادةً بعد انتهاء مدة الثلاث سنوات.

بينما كان أخي جمال من المجتهدين في كلية التربية جامعة الأزهر، لدرجة جعلته يكون الأول على دفعته في كلية التربية قسم اللغة العربية، وهو ما جعل أبي يزداد يقينًا أن الله يختار لنا خيرًا مما نحن نختار لأنفسنا، كان أخي جمال سعيدًا في كليته، فلقد كنا دومًا نقول له إن هذه الكلية تشبهك، وهذا التخصّص يتطابق معك.

ومع انشغال أبي في الورشة وتخرّج محمد ومتابعة جمال في كليته، لكنه لم يُقصّر أبدًا في تنفيذ مطالبي أيًا كانت خلال المرحلة الثانوية على أمل أن يراني مهندسًا كما يأمل ويظن، وبما أن الثانوية الأزهرية

عام واحد وهو الصف الثالث الثانوي، لم يركّز أبي كثيرًا في درجاتي في العام الثاني معتبرًا إياه مجرد تحضير، وإن لم أولِ الامتحانات الاهتمام المناسب لأن السنة غير مهمة، عكس ذلك، وهو ما أكدته لوالدي ظاهريًا، برغم أني أعلم أن الإدمان هو ما جعلني ضعيف التركيز، لكن لم أستطع البوح لأحد بذلك السر، لدرجة جعلت أصدقاء الورشة يعتقدون أني تركت مشاهدة هذه الأفلام، لم أكن أستعير منهم أي أسطوانات للكمبيوتر متعللاً أن عندي سنة دراسية مهمة، لكن استخدمت سلك الإنترنت الأرضي لإدخال الإنترنت والتصفّح بدون معرفة أي أحد.

****

حفل زفاف

في أول أيام زواجي من ماريا جلست معها جلسة أشبه بما قام به أبي رحمه الله مع أمي حين تزوجها وهي بنت التاسعة عشرة، من جلسة نصح لتعزيز المودة والرحمة، نصحت ماريا أن الحياة ليست خطًا ثابتًا، وأن دوام الحال من المحال، لكن الدهر يومان: يوم رخاء فنشكر، ويوم شدة فنصبر، وأن الصحة هي أكبر النعم، وأن قوام البيت ليس معناه ألا نختلف أبدًا، لكن معناه ألا نفترق أبدًا.

لم تكن ماريا مثل أمي، فلم تستمع لتلك الكلمات وتصمت، بل إنها حضنتني حضنًا دافئًا شعرت معه أنها هي التي تنصحني وتحتويني وليس العكس، ثم ربتت على كتفي وقالت:

.لا تقلق من نوائب الدهر، فأنا معك في مرّها قبل حلوها، وأنا مؤمنة بك وبمعدنك الأصيل، وأن الله لن يخذلك، فالذي نجاك في كل ما مررت به لن يتركك فيما هو قادم.

ظلت تذكرني بكل المواقف التي أنجاني الله منها، ولطف الله عز وجل الذي كان يحتويني، كنت أستمع لها كأني لم أمر بهذه المواقف، أو أنها تسرد الأمر لي للوهلة الأولى، برغم أني من قصّ عليها تلك المواقف التي مررت بها، ومن خلال سردها كنت أحيانًا أشعر فيها

بلمسة تدين مضيئة، برغم أنها لم تكن قد أسلمت بعد في ذلك الوقت، لكن كنت أراها من الزوجات اللاتي يعرفن حق أزواجهن قبل حقهن، هذا ما جعلني لا أخفي شيئًا عليها بكل تفاصيل الماضي وأي موقف في الحاضر من أعمال الورشة وخلافه، ما عدا ذلك السر الذي كنت دائم الإخفاء له، لم أكن بالجرأة الكافية بعد لأبلغها بهذا الأمر.

بعد أسابيع قليلة من الزواج بدأت أعراض الحمل تظهر على ماريا، وقد كنا ننتظر هذه اللحظة منذ بداية زواجنا، ولم يختلف حمل ماريا عن باقي نساء جيلها، فقد كانت الأجيال السابقة أكثر تماسكًا من الجيل الحالي في مواجهة أعراض الحمل، ولكن الفرحة التي بداخلنا هي التي جعلتنا نتحمل تلك الأيام، وكنت حينها أرعى ماريا وفرانشيسكو طريح الفراش في الغرفة المجاورة، الذي أصابه مرض السرطان مؤخرًا قبل الزواج بقليل، لكنه رفض تأجيل الزواج لأنه يثق بي ويريد أن يطمئن عليها معي.

****

صدمة

بدأت أهم سنة تعليمية في مساري الدراسي، وعلى عكس الشغف الذي كنت أنتظره بها منذ سنوات، لكن بمجرد أن بدأت السنة من دروس ومذاكرة وخلافه، ومع حماسةٍ لم تُكمل الشهر، عادت ريما لعادتها القديمة كما يقال، أغلقت على نفسي باب غرفتي للسقوط أكثر في هذا الوحل الذي لا أعرف طريقًا للخلاص منه، فاجتهدت في المواظبة على الصلاة والدعاء، لم أتركهما يومًا، وبرغم ذلك تدور الدائرة وأعود لمثل هذا السلوك الذي جعلني أشمئز من نفسي ولا أفهمها، فلا دراسة قادر على التحصيل فيها، ولا مجهود بدني قادر على البذل فيه، وأصبحت كالصورة المزيفة أو البالونة المنتفخة من الخارج، الهشة من الداخل. لم أعد أريد أن أرى أحدًا وأتحسس من التعامل مع الناس، أصبحت مكتئبًا، حزينًا على ما وصلت إليه، لا أدري ما هو، حتى أنهيت هذه السنة بذاك التخبط والإدمان الخفي، فما كان مني إلا أن وصلت لنهايتها بقشور من المذاكرة ومزيد من الإدمان، للدرجة التي جعلتني أفكر جديًا في تأجيل هذه السنة، لكن لعدم وجود مبرر قوي ودامغ لأبي لم يكن ليتركني إلا بعد معرفة السبب، وهو ما دفعني لاستكمال العام الدراسي ودخول الامتحانات كالذي يُساق إلى الموت.

امتحنت هذه السنة وأنا أشعر بمشاعر متضاربة من الخزي والتوهان، ولا أدري هل هذه حقًا هي السنة التي انتظرتها طويلًا لأثبت تفوقي؟ هل هذه هي السنة التي يطمح أبي وأمي منذ زمن لأعبرها لأكون مهندسًا؟ في وسط تلك الصراعات الداخلية أنهيت الامتحانات وكأن شيئًا على صدري لاذ بالفرار، على عكس والديّ اللذين كانا متشوقين للنتيجة، مترقبين دخولي كلية الهندسة، لم أكن أبالي بالنتيجة، ولا أعرف كل هذا الكم من التبلد الذي أصبحت فيه متى جاء؟ ومتى يذهب؟

وما أن سمعنا أن النتيجة ظهرت، لم يكن من أبي إلا أن أمرني بالبحث عنها لمعرفة درجاتي، كنت أريد أن أتحجج بأي أمر للهروب من ذلك الموقف، لكني لم أجد بدًا من الخضوع للأمر الواقع، وبالفعل فتحت الموقع وكان ثقيلًا جدًا في التحميل كوقع الخبر المتوقع سماعه على آذان أبي وأمي، بعد عدة محاولات تم تحميل النتيجة التي ظهرت بالأرقام، وما كان من أبي إلا أن قال لي: أحسبها بالنسبة المئوية، وعند حسابها لم أجد قولًا أبلغ من أني قلت لأبي متأسفًا: مجموعي نفس عام النكسة. لم يفهم أبي مقصدي في البداية، لكن أبلغته بعدها بدقائق أن معدلي هو سبعة وستون بالمائة، ولا أدري بأي كلام أصف نظرة أبي لي، من اندهاشه بعدم تفاجئي كأني ألتقط الأنفاس أني لم أرسب، أو استغرابه بالمعدل السيئ بعد بذله كل ما في وسعه معي العام الماضي، كنت آخر آماله

بالتحاق أحد أبنائه بكلية قمة أو على الأقل التحاقه بالكلية التي يبتغيها، وبعد ضياع حلم الهندسة تمامًا، لم تكن معاهد الهندسة المنتشرة حاليًا موجودة بهذه الشهرة فترة انتهائي من الثانوي، فضلًا عن عدم رغبة أبي في أي شيء بعد هذه النتيجة، بالإضافة إلى أن أمي كانت أكثر حزنًا لحزن أبي أكثر من حزنها على النتيجة نفسها.

ترك لي أبي حرية اختيار مسار الاستكمال مع نصيحة بأنه إن كنت فقدت الكلية التي نبغي لها، فاعلم أن أشرف العلوم في الطلب هي العلوم الشرعية، وأنت خريج ثانوية أزهرية، فابحث عن شيء يعوضك ما فقدته في حلمك، ولإحساسي حينها أن كل الأمور تساوي بعضها، فانتظرت التنسيق حتى يظهر لأرى كلية مناسبة لي والأخذ بنصيحة أبي لعل حزنه يهدأ قليلًا، بحثت عن كلية مناسبة لمجموعي، وبالفعل وجدت كلية متطابقة مع مجموعي بالدرجة، وكنت أعتقد حتى أن مجموعي لن يصل لها، لكن بفضل الله جاءت في التنسيق مثل مجموع درجاتي تمامًا، وهو الأمر الذي شعرت أن أبي قد يكون راضيًا أو على الأقل يهون عليه خبر سقوطي المدوي في نظره، فالتحقت بكلية الدراسات الإسلامية على أمل إرضائه من جهة، والالتحاق بكلية بها دراسة علوم شرعية لعلها تعينني على الخلاص من هذا الإدمان الذي كان سبب فشلي في تحصيل ما كنت أصل له بسهولة قبل الوقوع في هذا الفخ.

بعد بدء الدراسة كنت أذهب إلى الكلية ثلاثة أيام، وهي مدة الدراسة الأسبوعية في الكلية للقسم الخاص بي. كنت في بداية الدراسة متحمسًا جدًا، فقد أحببت القسم كثيرًا، فانشغلت في الدراسة وعدت مرة أخرى للعمل في الورشة، وهو ما جعل انشغالي هذا يبعدني عن الإدمان، فمن ناحية الدراسة تعرفت على زملاء غاية في الأدب، وفي الورشة انغمست أكثر في العمل، وهو ما جعلني أنجز مهام كثيرة مع أبي في صنع الأثاث المتراكم في الورشة، وأنجزت كثيرًا في الدراسة في أول ترم في الكلية، مما جعلني من المتفوقين بعد نهاية الترم الأول، وذلك قد هون على أبي قليلًا، فأحب أن يكافئني بشيء مميز، وليته ما فعل.

اشترى لي هاتفًا جوالًا من أحدث طراز تعويضًا عن الوعد الذي قطعه لي أنه لو دخلت كلية الهندسة سيشتري لي الهاتف الجوال، لكن بما أني لم أحقق المطلوب، انتظر حتى وجدني تفوقت في الكلية، فأتى لي بالهاتف الجوال كهدية أملًا أن أجتهد أكثر في دراستي وأستمر على ذلك المستوى، ولا يعلم أبي أن ما كان هدية لتفوقي سيكون سبب عودتي للإدمان أكثر، وسيسهل طريق الهلاك.

بعد أن اشترى لي الهاتف بدأت أعود للإدمان تدريجيًا، فهذا الجهاز الصغير هو كارثة بكل المقاييس، صغير الحجم، سهل الحمل في أي مكان، سريع في الاتصال بشبكات الواي فاي التي بدأت في الانتشار في كل منزل، أكبر سارق للوقت بل للعمر إن لم نحسن استغلاله،

وللأسف مع هذا الإدمان كنت أستخدمه أسوأ استخدام، فلم تكن تأتي فرصة إلا وشاهدت عليه هذه المشاهد في أي مكان، من غرفة نومي ودورة المياه وكل الأماكن التي يمكن أن أختلي بها بنفسي، وجدتها فرصة للسقوط أكثر في ذلك الإدمان، وهو الأمر الذي ظهر عليّ في عدم ترددي على الورشة كثيرًا في الترم الثاني، كنت أتحجج أن عندي مذاكرة، وأن الترم الثاني أصعب من الأول، وهو ما لم يظهر في نتيجة الترم الثاني إطلاقًا.

اغتاظ أبي لحالي وموقفي، ولم يفهم ما حل بي، وحتى أنا لم أستطع البوح بما أعانيه، فلو كنت أشرب سجائر لأبلغته أني أدخن وأريد التخلص من الأمر، ومتأكد بسعة صدره أنه كان سيساعدني بدون تعنيف، لكن للأسف لم أستطع البوح بما وقعت فيه، فشعور الخزي والخذلان واحتقار الذات كان يلازمني كلما فكرت في طلب المساعدة، لمن أذهب؟ ومن يساعدني؟ فمثل هذا الأمر ينقسم إلى فئتين، فئة ستنفرك وتنكر عليك هذا، بل ستسقط من نظرها تمامًا حتى ولو كانوا أهلك، وفئة أخرى وهي الواقعة في ذلك الأمر مثلك، سيهونون الأمر عليك ويعيدون تلك الأمور الواهية التي يصبرون أنفسهم بها أنها مرحلة حتى الزواج وستمر إلى حالها، وأن أناسًا كثيرين يفعلون ذلك، وظللت ما بين هذا الأمر وذاك، أقوم وأسقط، ولا أكمل أيامًا من التوقف حتى أجد ما يجذبني أكثر، وأنا لا أفهم شيئًا مما يحدث لي، شعرت وكأنني في حفرة، وكلما أردت الخروج منها أسقط فيها أكثر.

حاولت كثيرًا مخالفة هواي ونفسي التي تجنح إلى الغرف المغلقة رأفة بحال أبي الذي كان يبذل كل ما بوسعه لسعادتي ولتوفير طلباتي، وجعلت أيام الكلية أعود منها إلى الورشة بدلًا من العودة إلى المنزل، على أن أظل أيام إجازتي كاملًا بالمنزل بحجة المذاكرة.

كعادة أبي بسعة صدره وثقته بي صدقني، وترك لي الأيام الباقية للمذاكرة، ولكنه اشترط عليّ ألا أتأخر في مجيئي من الكلية، فآذان العصر يجب عليّ أن أكون في الورشة، لأنه سيوكلني بأعمال ويعتمد عليّ فيها، وتمنى ألا أخذله.

كان وقع كلمات أبي علي ثقيلًا، لكن وقع الإدمان في النفس كان أثقل بكثير، كنت ملتزمًا في البداية وبعدها بدأت أتأخر، مما جعل أبي يتصل بي على الهاتف الجوال ليستعجلني كلما تأخرت، وكنت أتحجج بأن المحاضرة كانت أطول مما ظننت، للأسف كنت أكذب، كنت أحيانًا لا أحضر المحاضرة من الأساس، وأحيانًا أجلس على بعض الكافيهات القريبة من الجامعة، شعرت حينها بكم الفراغ الداخلي الذي أحدثه هذا الهاتف في حياتي، فمن جانب كان أبي يعتمد علي ويعتقد أنني أصبحت رجلًا قادرًا على تحمل المسؤولية، ومن جانب آخر أصبحت أكثر هشاشة من الطفل الصغير أمام هذا الإدمان.

****

عودة من جديد

لم تمر سنة على زواجي من ماريا حتى توفي والدها فرانشيسكو بعد ولادة جمال ابني الأكبر بأشهر قليلة، رغم أن الوفاة كانت متوقعة عطفًا على الحالة المرضية التي ألمت به في الفترة الأخيرة، لكن بفقدانه شعرت كأني فقدت أبي مرة أخرى، فقد كان لي بمثابة أبي ومعلمي واليد التي امتدت لي حين ضاقت علي الدنيا في الغربة، لم يختلف بكائي عليه عن بكاء ابنته ماريا وبكاء جمال الذي بكى على بكائنا، رغم أنه لا يفهم سبب البكاء، لكن الأطفال يشعرون دائمًا بما لا يقال.

بعد وفاة فرانشيسكو ركزت على تطوير الورشة، فهي إرثه من بعده، قمت بتوسعيها من خلال التعاقد مع أصحاب شركات الأثاث لتنفيذ تصميماتهم الخشبية، وبدأ اسمي يتداول بين أصحاب شركات صناعة الأثاث بسمعة فنية في النجارة وصناعة يدوية بها اللمسة العربية الشرقية.

بعد سنتين تقريبًا من ولادة جمال حملت ماريا من جديد، ولكن هذه المرة حملت في بنت.

بالفعل جاءت تحية التي كانت تشبه أمها في كل شيء، وحضنتها بين ذراعي كأني أحضن أمي من جديد، أمي التي لم أشبع من حنانها، فأردت أن أعيد حكايتها في ابنتي.

وذات يوم أبلغت ماريا بنيتي لنزول إجازة إلى مصر، فرحبت على أن تكون الإجازة بعد إنهاء الأولاد العام الدراسي، برغم أن الأولاد كان ما زال لديهم عدة شهور حتى ينتهوا من عامهم الدراسي، لكني من حماستي للرحلة كنت قد بدأت تحضير شنط السفر منذ أن أخبرت زوجتي.

كنت أنام يوميًا أحلم كيف أصبح شكل ورشتي في مصر، وكيف حضن أمي وأبناء إخوتي وقبر أبي، ظللت أتذكر مدرستي وأصدقاء الجامعة، أعد الليالي حتى يأتي موعد السفر إلى رحلة الحنين والعودة إلى الوطن بعد طول غياب تخللته كثير من الخواطر والمخاطر التي كنت فيها أقرب إلى الموت من الحياة.

وعند اقتراب بدء الإجازة الصيفية وتحديد مواعيد الرحلة، حجزت تذاكر الطيران وأنهيت كل إجراءات السفر، أوكلت متابعة أعمال الورشة إلى أحد العاملين القدماء ذوي الخبرة، وهيأت أبنائي وزوجتي نفسيًا لليلة الرحلة التي كانت إقلاعها منتصف الليل من فلورنسا، ثم الهبوط ترانزيت في روما، وبعد ثلاث ساعات نكمل رحلتنا إلى القاهرة.

حين لامست عجلات الطائرة أرض مطار القاهرة في صباح اليوم التالي، شعرت وكأن قلبي هبط قبل الطائرة، لا أعلم لماذا دقات قلبي بدأت تتسارع عكس المألوف؟ نعم كان اليوم الأول الذي أركب فيه طائرة في حياتي، فقد خضت كل رحلاتي في الصحاري على قدمي وفي البحر عبر القارب، وحتى تنقلي في إيطاليا كان عبر القطار، لكن هذه المرة الأولى التي كنت أركب فيها الطائرة.

بعد الخروج من الطائرة والنزول إلى جنبات المطار بدأت دقات قلبي تهدأ قليلاً ويحل محلها نسائم رائحة الوطن، لم أكن أعلم أي أحد من أفراد أسرتي بقدومي، قد انقطعت أخباري منذ خروجي من مصر إلى ليبيا ولم أحاول أن أتواصل معهم حتى أكون ما كنت عليه الآن، لا أعلم إن كان هذا القرار صحيحًا أم خطأ، ولكن هذا الذي حدث.

انتهيت من إجراءات الخروج من المطار، أوقفت تاكسي، ومع تحرك السائق في شوارع القاهرة اختلجني حنين قديم، وكذلك لاحظت أن زوجتي وأبنائي كأن على رؤوسهم الطير، لم يحركوا ساكنًا إلا أنهم ينظرون من نوافذ السيارة بأفواه مفتوحة كأنهم سافروا عبر الزمن.

عندما وصلت إلى البيت الذي ولدت فيه، لم تكن المشاعر لدي مثل التي تنتاب شخصًا وصل إلى مكان ما بعد فراق، لكن كانت مشاعري مختلطة بين الفرح والحزن، نعم الحزن بعدم وجود أبي، وبعض ذكريات الماضي التي كنت أتمنى ألا تحدث، لكن لم أترك

تلك المشاعر السلبية تتملك مني، نظرت إلى الجانب الإيجابي حيث أنا الآن عائد من جديد لأرى أمي وإخواني.

صعدت درجات السلم وأنا أحمل حقائب السفر برفقة زوجتي وأولادي، ثم ما إن وقفت أمام باب الشقة حتى تنهدت تنهيدة عميقة قبل أن أطرق الباب.

بعد الطرقة الأولى ما هي إلا ثوانٍ وفتحت لي فتاة في بداية العقد الثاني من عمرها، وقالت: حضرتك عاوز مين؟ فأخبرتها أني أريد الأستاذ جمال، فأبلغتني أنه غير موجود ولا يوجد في البيت غير جدتها، فعلمت أن هذه ابنة جمال الكبرى، أبلغتها أني أريد أن أتحدث مع جدتها وقلت لها: أبلغيها أن صهيب على الباب، برغم أن الفتاة قد لفت انتباهها اسم صهيب، فيبدو أنه تم ذكره أمامها سابقًا ولكنها لم تكترث كثيرًا وذهبت لمناداة أمي.

****

ذنب لن يُغتفر

ظللت طوال العام ثلاث أيام في الكلية، وعند العودة في هذه الأيام الثلاث لا أذهب للشقة، بل أذهب للورشة لمتابعة أعمالي مع والدي، والأيام الأخرى في المنزل قابعًا في غرفتي مع إدماني السري، وإن طلبت مني أمي عشر طلبات قد أجيب على اثنتين متأففًا، كانت أمي دائمًا تتحسر على معاملتي مقارنةً بمعاملة جمال لها قبل التحاقه بالجيش، كنت بالفعل أرى أني واقع في مشكلة لا أعرف حلها، عكس ما كنت أراه عند الشباب في الورشة الذين لا يريدون أن يعترفوا أن هناك مشكلة من الأساس.

وبسبب ضغط أمي عليّ بكثرة الطلبات في الأيام التي كنت أركن فيها إلى المنزل، وانشغالي في الأيام الأخرى للذهاب إلى الكلية ثم الذهاب للورشة، أصبحت أشاهد هذه المشاهد على الهاتف الجوال في أماكن لم تخطر على بالي يومًا، حتى أني تجرأت وشاهدتها عدة مرات وأنا جالس على الكافيه بجوار الجامعة، فقد كان لي ركن خاص خلف الحائط لا يراني أحد، أو كذلك كنت أعتقد، ونسيت أني أعلم أن الله يرى، لكنه ستير، فكم سترني في العديد من المواقف التي تجرأت فيها عليه سبحانه وتعالى.

كنت أخذتها عادة، فكلما تركت المحاضرات ذهبت للكافيه وانزويت في هذه الزاوية الخبيثة، أخرجت الهاتف وشاهدت تلك المشاهد، وفي أحد الأيام التي تركت فيها المحاضرات بالكامل، كنت قد وضعت على الهاتف العديد من هذه المشاهد وذهبت إلى نفس المقهى، جلست في نفس الزاوية، وبعد مشاهدات أفقدتني تركيزي، أخلّت ببوصلتي في التفكير، وجدت اتصالًا متكررًا من أبي، كان ميعاد المحاضرة الأخيرة قد فات منذ مدة، لكن لم أرد على أبي كعادتي، لعلمي أنه يريد أن يستعجلني لأكمل أعمال الورشة، فبدلًا من ذلك أكملت مشاهدة المقطع، ومع تكرار اتصال أبي قمت، ذهبت للورشة، وكان الطريق ميسرًا فوصلت للورشة هذا اليوم في أقل من ساعة لأتفاجأ أن الورشة مغلقة، قد كان أبي أحيانًا عندما يقوم بأعمال تحتاج إلى التركيز يغلق الورشة لمعرفته أنه معي مفتاح احتياطي، ولكن لم أتخيل أبدًا أنه كان يتصل بي ليستغيث بي، لكني بكل جرأة خذلته، ذلك الحدث الذي لم يخفُ عن بالي أبدًا لا في منامي ولا استيقاظي، دائمًا كنت أرى صورة أبي وهو مدجج بالدماء كما وجدته في ذلك اليوم.

****

أول لقاء بعد طول فراق

ظل قلبي يرتجف حتى سمعت صوت خطوات متثاقلة قادمة إلى الباب، يبدو أن أمي هي أيضًا توقعت أي شخص يحمل اسم صهيب في هذا العالم عدا أنا الذي أكون على الباب، وما إن أزاحت أمي الباب كاملًا، رأتني وكأن الدم جف من وجهها، رأيت الصدمة على ملامحها، لم تعرف ماذا تقول، كانت صدمتها غير مفهومة، ما بين الفرح والاستغراب والدهشة وعدم تصديق ما تراه، لكن برغم تغيير ملامحي كثيرًا على مر السنين، لكن الأم تعرف ابنها من وسط مليون شخص.

لم تفعل أمي شيئًا إلا أنها احتضنتني وظلت تبكي، كأنها وجدت شيئًا قد يأست من إيجاده في اللحظة التي لم تتوقع إيجادها إياه، لم أستطع أنا أيضًا حبس دموعي بمجرد أن ارتميت في أحضانها، كانت الفتاة التي فتحت لنا الباب تنظر إلينا، يقف بجوارها فتاتان أخريان أصغر منها سنًا، وكذلك كانت زوجتي وأولادي يشاهدون الموقف وهما أمام باب الشقة، حتى لاحظت أمي ذلك فبادرت بإدخالنا الشقة.

أجلستنا أمي على الأنتريه في الصالة، جلست أمامي ممسكة بيدي وهي تنظر لي غير مدركة ما هي فيه، نظرت إلى زوجتي وأولادي بدون

أن تنطق بأي كلمة كأنها نسيت كيفية الكلام، فقط تنظر إلينا وعيناها كأنها شلال دموع، بادرت أنا هذه المرة بالحديث وقلت لها: يا أمي أقدم لكِ زوجتي ماريا وابني جمال وبنتي تحية.

وما إن نطقت اسم تحية حتى ضمتها أمي إلى حضنها، ثم لفت انتباهها ملاحظة جمال ذلك، فضمته هو الآخر حضنًا أقوى وقالت له: أنت ابن الغالي، أجلست كُلًّا من جمال وتحية على فخذيها.

وما إن هممت بإخبارها قصتي إلا وجدت باب الشقة يفتح، دخل أخي جمال وزوجته، وما إن رأى شنط السفر وسمع أصواتًا غريبة في المنزل إذ همّ مسرعًا ليرى ما الأمر، حتى رآني أمامه، ودقق النظر فيّ وكأنه غير مصدق ما يراه.

قمت من مكاني وأخذ كلٌّ من الآخر في حضن مليء بإطفاء شوق الفراق بمشاعر مختلطة عما شعرت به في حضن أمي، فكلٌّ منهم كان له اشتياق يختلف عن الآخر، حينها علمت أن الشوق أنواع.

جلسنا أنا وأمي وأخي وزوجتي، قصصت عليهم قصتي منذ خروجي من مصر حتى عودتي، تخللها أسئلة كثيرة من أمي وأخي، لكن أكثر ما أسعد أمي رؤية أبنائي جمال وتحية، سرد لي جمال بعض الأحداث التي حدثت من كونه أصبح موجه لغة عربية ومدرسًا معروفًا، وأنه أنجب بناته الثلاث: تحية الكبرى على اسم أمي، وفاتن الوسطى على اسم عمتي، وبهيه الصغرى، وعندما سألته عن سبب تسميتها بهية،

فقد أبلغني أن زوجته تم تشخيصها بورم حميد في الثدي وتم العلاج منه، كانت التي تبرعت بافتتاح المستشفى اسمها بهية والمستشفى على اسمها، فأُعجب بالاسم وقرر تسميتها إياه، أكد لي أن زوجته حاليًا بأفضل حال.

أما عن أخينا محمد فقد أبلغني أن عنده الآن شركة شحن وأصبح يمتلك أسطولًا من سيارات التوصيل وأنجب ثلاثة ذكور: محمد، جمال، وصهيب، تفاجأت كثيرًا أن محمد أخي سمى على اسمي، لكن مهما حدث فهو أخونا في النهاية.

صباح اليوم التالي أتى محمد لزيارتنا مع أبنائه، فقد أبلغه جمال بقدومنا أثناء نومنا أمس، أتى وجلس معنا وقد تغيرت ملامحه، كبر قليلًا، لكنه يظل محمد أخي بالجدية التي أعهدها عنه، لكن يبدو أنه عندما يكون عندك أبناء ذكور فقد تظهر على تصرفاتك غير أخي جمال ببناته الإناث، فعلًا أن يكون أبناؤك ذكورًا ينعكس على شخصيتك عكس أن يكون أبناؤك إناثًا.

ظللت الأيام الأولى أغلبها جالسًا مع أمي، لم أشبع من الجلوس معها مهما طالت المدة، زوجتي ماريا بدأت تتعود على المكان قليلًا، أما أبنائي فاندمجوا سريعًا مع بنات عمهم جمال: تحية، وفاتن، وبهية.

بعد انقضاء الأسبوع الأول بدأت الخروج من الشقة، كان أول خروجي لزيارة قبر أبي، أحببت الذهاب بمفردي وتحدثت مع أبي

كأنه أمامي، هل سامحتني يا أبي؟ لقد حاولت مرارًا أن أعوض أي قصور أحدثته في الماضي، لقد أصبح لدي ورشة، وابن اسمه على اسمك، وبنت اسمها تحية، لقد أصبحت شخصًا آخر، ثم دعوت له وغادرت.

في الأيام التالية زرت ورشة أبي لأجد الشخص الذي خدعني، لكن كنت أكثر هدوءًا في ملاقاته، عندما جلست معه أقسم بكل الأقسام أنه انخدع مثلي تمامًا، وأن الشخص المُهرِّب خدعنا نحن الاثنين، لم أقم بتكذيبه، فلم يعد بالإمكان أفضل مما كان، لم يعد في النفس مكان للعتاب على شيء، شكرته وغادرت، وقلت في نفسي: رب ضارة نافعة.

في الأسابيع التالية زرت مدرستي وجامعتي وبعض الورش التي كنت أذهب إليها وبعض الأصدقاء الذين كنت أعرفهم وبعض الأماكن التي افتقدتها، أحببت أن آخذ زوجتي وأولادي في جولة للأهرامات وبعض الأماكن السياحية، فهم بالتأكيد لا يشعرون بما أشعر به في أماكن الذكريات التي أذهب لها.

****

الهروب

خرجتُ في جولة أنا وأخي جمال، ظللنا نسير حتى سارت بنا أقدامنا إلى مكان قديم كنا دائمًا ما نجلس فيه في صغرنا، فاستفسر أخي جمال عن سبب الغياب وسبب قطع الأخبار، شعرت بحاجة للبكاء وأن أَرتمي في أحضانه، لكن ما رأيته في رحلتي جعل كأن دموعي جفَّت بداخلي، فأخذت نفسًا عميقًا وأسندت ظهري إلى جذع شجرة، ثم أخذت أسرد له من أول تخرجي من الجامعة أثناء ما كان ينصحني بفتح الورشة، فبالنسبة لهم العذر الذي كنت أتحجج به دائمًا وهو المذاكرة لم يعد موجودًا، وعلى النقيض فالانتكاسة التي دخلت فيها جعلتني لا أطيق العمل ولم أَشترِ أي أخشاب وأتاجر بها كما كان يقوم أبي رحمه الله بذلك.

ما إن فتحت الورشة فبادرني مالك المنزل الموجود به الورشة بطلب دفع الإيجار المتأخر، وهو ما فاجأني أن منذ وفاة والدي لم ندفع الإيجار، فالأمر كأنني نسيته، برغم أن أبي كان يدفع الإيجار أمامي، لكن منذ وفاته لم يرغب صاحب المكان في طلب الإيجار طوال غلق الورشة حرصًا على مشاعرنا وأن الورشة لا تعمل.

عند فتحي للورشة اعتقد أني بدأت بالعمل والمكسب مرة أخرى، طلب الشهور المتأخرة، وكان المبلغ كبيرًا، وهو ما جعلني أستأذنه في إمهالي بعض الوقت لتدبير المبلغ.

كذلك بعض المعدات التي حاولت العمل عليها كانت تحتاج إلى صيانة لبقائها بدون تشغيل مدة طويلة، وهو أيضًا ما لم يكن بمقدوري تغطية تكاليف إصلاحها، لجأت لأخي محمد، فعمله على السيارة يوفر له مبلغًا جيدًا لدرجة أني علمت أنه يدخر مبلغًا لكي يأتي بسيارة أحدث، لكن عندما تحدثت معه بدأ بالحديث عن ضيق المعيشة وصعوبة مساعدتي في الوقت الحالي، وهو ما جعلني أتعفف عن الطلب من أخي جمال، فحاله لم يكن يخفى عليّ من محاولته العيش كفافًا من مرتبه الوظيفي، بالإضافة إلى رعايته لأمي.

أُغلقت كل الأبواب في وجهي، صاحب المكان يريد الإيجار، والمعدات تحتاج إلى صيانة لبدء العمل، فضلًا عن هذا كله أنا غارق في الإدمان ولا أجد مخرجًا من هذا الفخ الذي حاولت الفكاك منه العديد من المرات، لكن كانت النتيجة واحدة في كل مرة، بل إنها كانت أحيانًا تكون أشد سوءًا من شدة الإدمان السابقة.

بدأت أذهب لبعض الورش القديمة التي كان أبي يتعامل معها لكي أجد أصدقاء قدامى يساعدونني في تصليح تلك المعدات لعلّي أجد من يقف بجانبي حتى أبدأ العمل وتسديد ديون الإيجار ثم تسديد

ديون التصليح، لكن بعد المرور على عدة ورش لم أجد من عنده الحماس ليساعدني، إلا أن أحد زملاء الإدمان القدامى قد عرض عليّ فكرة مغايرة، وهي العمل نجارًا في الخارج، بادرته بالسؤال عما يقصده، أوضح لي وجهة نظره أنه ما دمت تحتاج الكثير من المال لكي تفتح الورشة مرة أخرى كسابق عهدها، ولابد من تسديد ديون الإيجار وتصليح المعدات، فبدلًا من ذلك كله أجد لك مشتريًا للورشة على حالها، وهو يقوم بتسديد المتأخر من الإيجار، وتخرج أنت بمبلغ جيد، من خلاله نبحث لك عن تأشيرة نجار تعمل عدة سنوات وتكون نفسك، ثم تعود بمبلغ جيد من المال وتفتح الورشة من جديد.

راودتني فكرة هذا الشخص كثيرًا، لكن ما كان يؤلمني هو بيع ورشة أبي، هذا المكان الذي تربيت فيه وخطوت خطواتي الأولى منذ نعومة أظافري به، بالإضافة إلى أني لم أرث من أبي غيره، فببيعه كأني آخذ قرار إنهاء كل ما تبقى لي من أبي.

لكن المشكلة مع هذا الإدمان أنه يُشوش أفكارك، فيجعلك تتخذ قرارات غير منطقية أو لم تكن تتوقع أن تقوم بها يومًا، فتفعل ما لا يكن متوقعًا منك.

بالفعل ذهبت مرة أخرى إلى هذا الشخص وأبلغته بموافقتي على بيع الورشة بشرطين:

أول شرط أن يقوم هو بتدبير تأشيرة العمل وتجهيزات السفر لي، والشرط الثاني أن من يشتري الورشة يعيدها لي عندما أعود بسعرها العادل حينها.

وافق على الفور حتى بدون الرجوع للمشتري، وأبلغني أن تأشيرة العمل ستكون لدولة ليبيا، وأن السفر سيكون في خلال أسبوع من تسليم الورشة.

بالفعل صباح اليوم المنتظر جمعت متعلقاتي الشخصية في الورشة، تركتها عند أخي جمال الذي صُدم من قراري، واستأذنته ألا يخبر أمي إلا بعد سفري، لم أخبر أخي محمد، فهو لن يلتفت للأمر كثيرًا.

قُمت بتسليم الورشة واستلام المبلغ الباقي بعد خصم الإيجار المتبقي، وقمت بتسليم مبلغ السفر والتأشيرة، وجهزت شنطتي كما أبلغني، لأجد سيارة ميكروباص تنتظرني وبها بضع أشخاص، فاعتقدت أن الرحلة ستكون برية حتى ليبيا.

ركبت الميكروباص بجوار شخص عرفت فيما بعد أن اسمه حسن، لم نتبادل أطراف الحديث كثيرًا في البداية ظنًّا مني أنها مجرد عدة ساعات وسنصل إلى ليبيا، وكل منا يتفرق على مكان العمل الخاص به، لكن عند حلول المساء كنا قد قضينا قرابة الاثنتي عشرة ساعة في الميكروباص، نعم لم أسافر ليبيا قط، ولكن شعرت بشيء

غريب، سواء في الأشخاص الموجودين في الميكروباص أو الطرق التي نسير عليها.

بعد مدة توقف بنا السائق في مكان ما من الصحراء، بادرته بالسؤال: أين نحن؟ ولماذا لا نسلك الطريق الدولي؟

رد عليّ الشخص الذي كان يركب بجوار السائق في الأمام وقال: نحن الآن على قرابة عدة كيلومترات من الحدود الليبية، وأكمل حديثه أنه من المستحيل في عمليات التهريب أن تكون من خلال الطريق الدولي.

فبادرته بالرد: عن أي تهريب تتحدث؟

أوضح لي أن هذه الرحلة إلى ليبيا لن تمر على نقاط التفتيش لأن أغلب الموجودين مسجل لديهم أحكام أو لا يحملون جواز سفر، وقال لي: لقد أبلغت الشخص الذي اشترى منك الورشة بذلك.

حينها علمت أن الشخص الذي حملني على هذا السفر قد استغلني بشراء الورشة مني والنصب عليّ في رحلة سفر مُهلكة قد لا أنجو منها أبدًا.

قررت العودة بنفسي إلى الديار وأردت ألا أكمل تلك الرحلة، حينها قال هذا الشخص الذي عرفت فيما بعد أنه الدليل: إنك إن عدت ستتوه في الصحراء وتموت دون أن يعرف أحد، حينها شعرت بألم

على ما أوصلني إليه إدماني من قرارات خاطئة أوصلتني إلى نقطة اللاعودة.

بعد مدة ركبنا الميكروباص مرة أخرى، فأطفأ السائق الأنوار وبدأنا نشق الكثبان الرملية بلا طرق ممهدة وبدون أن نرى شيئًا غير النجوم في السماء، لا نسمع صوتًا إلا صوت السيارة وصوت ارتطام الرمال بزجاج النوافذ.

بعد مدة أجبرنا الدليل على ضرورة غلق هواتفنا، وقال: هذه منطقة عسكرية بها تشويش وقد يعرفون أماكننا.

حينها انقبض قلبي أكثر، فبرغم الحال البائس الذي كنا فيه، لكن الهاتف الجوال كان أكبر مخدر في تلك الليالي الظلماء.

وبعد إغلاق هواتفنا بعدة ساعات توقف السائق في مكان وسط الصحراء وقال: انزلوا.

فبادرته بالسؤال: أين ننزل في وسط هذه الصحراء؟

تحولت طريقة الدليل في الرد التي اعتدتها منه طوال الطريق من الصبر على الرد إلى منتهى سوء الأدب في الرد وعلو الصوت، لكن ضعف الثقة بالنفس الذي أورثه لي ذلك الإدمان تغلب عليّ وخضعت لتلك التعليمات.

نزلت معهم في هذا الظلام الكاحل وسط الصحراء، وبعد مرور وقت لا أعلمه أعتقد أنه قرابة الساعتين، فقد بدأ نور الفجر يدنو، كانت الكثبان الرملية بدأت بالاصفرار بدلًا من سواد الليل الحالك، بينما نسير في وسط تلك الكثبان الرملية، إذ فجأةً قال لنا هذا الدليل إننا سنركب تلك الشاحنة.

نظرت أمامي ولم أر أي شاحنة، عن أي شاحنة يتحدث؟

وإذ بي أفاجأ بقماشة صفراء كبيرة تُرفع ليظهر خلفها صندوق كبير ألزَمونا على ركوبه في صمت، تفاجأت بهول مساحة صندوق الشاحنة، وكانت المفاجأة الكبرى أننا لسنا بمفردنا، لكنه يوجد أشخاص آخرون في ذلك الصندوق، كانت الرائحة تزكم الأنوف كأن شيئًا ميتًا قد تعفَّن في ذلك الصندوق، فما كان مني إلا أن جلست بجوار حسن الذي كان يجلس بجواري في الميكروباص من باب "اللي نعرفه أحسن من اللي منعرفوش".

أخبرني حسن أنه مسافر تهريبًا بسبب قضايا النفقة المتعددة التي تستمتع بها طليقته برفعها عليه، حتى تراكمت عليه الديون، وأصبح بين سندانين، إما الدفع وإما الحبس، وفي كلتا الحالتين اختار الهرب على أن يكون خيارًا ثالثًا رآه هو الأفضل.

تحدثت مع شخص كان موجودًا قبل دخولنا الشاحنة مستفسرًا لماذا لم نتحرك حتى الآن، فأجابني أنهم هنا منذ عدة أيام، وعند

شكوى أي أحد يقومون بإشهار السلاح في وجوهنا لنجلس مرة أخرى، حينها علمت أن الأمر أصبح يهدد الحياة بكل الأشكال، فإن لم تُمِتْني هذه الصحراء ستقتلني هذه العصابات.

لكي أشتت هذه الأفكار عن خاطري، استرسلت معه في الحديث عن المسافة التي بيننا وبين الحدود الليبية، فقال: نحن داخل الحدود الليبية بالفعل، لكن هناك عدة مواعيد يتم الاتفاق عليها للتحرك بالشاحنات، وكل شاحنة لها يوم محدد نحن لا نعلمه.

حينها علمت أن الانتظار هو الحل الوحيد للخروج من ذلك المأزق، ظللنا في هذا المكان قرابة الثلاثة أيام، يُلقون لنا فتات كسرات خبز وبعض رشفات الماء للشرب، وحتى التبول يكون في زجاجة، لا تغوّط لأنه لا أكل أصلًا، حياة لم أكن أتخيل يومًا عيشها، وتجربة لم أكن أصدق يومًا أن أمر بها.

بعد ثلاثة أيام أخبرونا أننا سنتحرك، وبالفعل بعد مدة ليست بالقصيرة تحركت الشاحنة أخيرًا، ومن خلال السير بعد ذلك شعرت أننا نسير على طريق ممهد فاستشعرت اقتراب الفرج. بعد مدة أنزلونا على طريق وكان ليلًا كاحلًا، لا أعلم ما بال هؤلاء القوم والليل، لكن هكذا كل من يريد أن يفعل شيئًا خاطئًا يجنح إلى ظلمة الليل.

سرنا جماعات على هذا الطريق، بعد مدة ظهر بعض الأشخاص وأخذوا بعضًا ممن كانوا معنا، ولا أعلم أين ذهبوا، ظللنا نحن الباقين

نسير حتى ظهر نور النهار، ومع ظهور النور سقط أحد الأشخاص فتجمعنا حوله، فصرخ علينا الدليل: "اتركوه، اتركوه، من سينتظره سيموت". حاولت أنا وحسن إفاقته ولكن دون جدوى، بعد ذلك أكملنا طريقنا تاركين هذا الشخص ملقى على قارعة الطريق، بعدها بقليل أخبرنا الدليل أن ننحرف يسارًا تجاه الصحراء لأن هناك نقاط تفتيش قريبة، وبالفعل سرنا على أقدامنا في هذه الصحراء القاحلة والرمال الحارقة بأجسادنا المنهكة.

ظللت أتذكر غرفتي في صغري، أبي وأمي وحنيني للماضي، وظللت أتحسر على الحال الذي وصلت إليه، نعم لم تكن عيناي تذرف دموعًا، لكن كان قلبي يقطر دمًا.

وأثناء هذه الذكريات إذ بي فجأة أسمع أصوات طلقات نار قريبة، فدب الذعر فينا جميعًا، غير أني وجدت بعض الأشخاص هجموا علينا من الجبال بلباس عسكري وصوبوا أسلحتهم ناحيتنا، فتحدث معهم الدليل بلهجة ليبية لم أفهم معظمها، بعدها أتت شاحنات عسكرية فورًا وتم تقييدنا وصعدنا جميعًا تحت وابل من الشتائم التي لم أفهم منها شيئًا غير تأكدي أنها سباب من شكل أوجههم وهم يقولونها، وتم توزيعنا على الشاحنات وكانت أول مرة أترك حسن منذ أن ركبت معه من أمام الورشة.

بعد صعودنا المركبات العسكرية تحركت بنا لقرابة النصف ساعة ثم أنزلونا بنفس طريقة الصعود، غير أنهم أضافوا بعض الضرب بالأيدي، فمنا من كان نصيبه على أجزائه العليا، ومنا من كان نصيبه على أجزائه السفلى، ومن لم يكن محظوظًا فضربته أتت في المنتصف.

تركونا في مكان واسع أشبه بالمسجد، كانوا يسمونه "المخزن"، وبرغم أن الحال لم يكن جيدًا، فالعدد كبير والتهوية لم تكن أفضل حال، لكن بالمقارنة بما عايشناه في صندوق الشاحنة فلا يوجد مجال للمقارنة، نعم لم يكن هناك مكان مخصص للنوم لكل فرد، لكن المساحة كانت تسع الجميع، وكان هناك دورات مياه ووجبات رغم قلتها، لكن بعد ما عاصرناه في رحلة التهريب يبدو أن طموحنا أصبح أقل كثيرًا من طموحات العيش لأي إنسان آدمي طبيعي.

لم يكن يسوءني إلا طريقة المعاملة والأسلوب غير الجيد لبعض الأفراد المسؤولين عن حراستنا، لكن هذا الإدمان الذي أصارعه منذ سنوات وأحاول وأفشل، يبدو أنه تمكن مني فجعلني أستمرئ مثل تلك المعاملة الدنيا.

ظللنا في هذا المكان عدة شهور، لم يكن يسوءني إلا تركي الهاتف وامتناعي عن المشاهدة، لم أكن أفكر في أسرتي مثلما أفكر في إدماني، وبرغم شعوري أن تركي للإدمان كل هذه المدة سيساعدني على

التعافي، بل كنت سعيدًا في بعض الأحيان أن هناك أمرًا نجح بمنعي عن المشاهدة، إلا أني لم أكن واثقًا هل ما أنا فيه مجرد ترك بسبب المنع القهري أم أنه تعافٍ حقيقي.

جاء إلينا بعض الأشخاص بزي رسمي وطلبوا بعضنا بالاسم، وكنت أنا منهم، أخذوني إلى غرفة تشبه غرفة التحقيق، وإذا بالمحقق يسألني: اسمك صهيب جمال؟ رددت: نعم. حاصل على ليسانس دراسات إسلامية؟ فأجبت أيضًا: نعم. سألني: كيف لشخص مثلك متعلم ويحمل جواز سفر ساريًا وحقيقيًا أن يقوم بمخاطرة مثل هذه ويأتي ليبيا عن طريق التهريب؟ فسردت له قصتي من خداعي لبيع الورشة، ثم خداعي أيضًا في طريقة السفر وما حل بي جراء هذه الرحلة، وذكرت له العديد من المواقف التي عايشتها من محاولات العودة، لكن تهديدي من طرف المهربين أني سأموت في الصحراء إن تركتهم جعلني أعزف عن الرجوع أملًا في النجاة.

بعد أن تحدث معي في بعض الأمور الشخصية، عرف تخصصي في مهنة النجارة، واعتقادي أنهم كانوا سيوفرون لي عملًا في مهنتي بمجرد الوصول إلى ليبيا، لكن كل هذا تحطم حين تغيّر مسار الرحلة من الطريق البري إلى الهروب في الصحراء.

عدت بعدها مرة أخرى إلى المخزن بدون معرفة ما أسفرت عنه جلسة التحقيق تلك، لكن بعد بضع أيام أتاني أحد الحراس وأبلغني

أنهم سيطلقون سراحي بكفالة، لم أكن أعلم تفاصيل أكثر من ذلك حتى أتى نفس المحقق للجلوس معي مرة أخرى، وأبلغني: هل معك مبلغ الكفالة؟ فأبلغته أن أموالي وهاتفي وكل متعلقاتي أخذوها مني حين حضرت إلى هنا، فأعادها لي مرة أخرى، كان بها مبلغ من العملة الليبية حصلت عليه من الشخص الذي خدعني عند بيع الورشة، وبالفعل دفعت الكفالة، ونصحني هذا المحقق أن أقنن أوضاعي خلال ثلاثة شهور وإلا سيتم ترحيلي، أعطاني ورقة مختومة من مكان احتجازي وأخبرني أن أسير بها حتى تقنين أوضاعي.

خرجت من الحبس هائمًا على وجهي لا أعلم أين أنا حتى سألت إلى أي قسم يتبع هذا المكان، فأبلغوني أنه يتبع مديرية أمن طبرق، لم أكن أسمع بطبرق من قبل، فلم أكن أعرف في ليبيا غير طرابلس العاصمة وبنغازي، ولا أعرف كيف لم أتطرق إلى هذا الأمر طوال أشهر الحبس، لكن بعد التدقيق والبحث علمت أنني أقرب للحدود المصرية أكثر من كوني أقرب للعاصمة الليبية.

ظللت أسير يومها ولا أعرف إلى أين أذهب، حتى قرأت لافتة مكتوب عليها "مؤسسة الميدان للأعمال الخيرية"، دخلت المبنى وإذا بحارس أمن يستقبلني، ذكرت له أني أبحث عن أي مصريين بالمنطقة فوجهني لشخص يُدعى "عم أحمد" في منطقة قريبة، وهو مشرف عمال بناء ومتواجد في طبرق منذ سنوات عديدة، بالفعل

توجهت له حتى وصلت إليه، جلست معه وسردت له قصتي، كان رجلًا بشوشًا معطاءً، أتى ليبيا من أيام القذافي ولم يغادرها حتى في أيام الحرب، تزوج من ليبيا وأنجب أبناءه هنا، فإذا جلست معه لا تشعر من لهجته أنه مصري، إلا عينيه التي يكشفها الحنين حين التحدث عن مصر.

وفّر لي عم أحمد وجبة ساخنة لم أتذوق مثلها قط، فقد كنت منذ أشهر لم أتناول طعامًا ساخنًا قط، حين أبلغته أني نجار وفّر لي مكانًا للمبيت مع العمال الذين يشرف عليهم، لم يطلب مني أي شيء، وبعد عدة أيام أتى لي بعرض تصليح بعض الأبواب الخشبية في مدرسة تحت الترميم، فوافقت على الفور ولم أتردد، وكنت حينها لم أعمل منذ فترة طويلة.

قمت بعمل الصيانة اللازمة للأبواب، لكن بعد العودة أبلغته أن عملي الأساسي هو نجارة الموبيليا، أبلغني أن أغلب ورش الموبيليا غير موجودة في هذه المنطقة ولابد أن أتحرك غربًا تجاه بنغازي، لكن قبل الرحيل لابد من تقنين وضعي، ولعلاقته الطيبة بالعديد من المسؤولين ساعدني عم أحمد في استخراج الإقامة وأرسلني إلى أحد النجارين المعروفين في بنغازي لأعمل معه.

ذهبت إلى بنغازي في سيارة تتبع عم أحمد، بعد أن هيأ لي كل شيء، من تقنين أوضاعي حتى إرسالي لوظيفة، وهو لا يعرفني، هكذا هم

أشخاص نتقابل معهم في حياتنا في الكثير من أوقات ضعفنا وهم لا يعرفوننا، فيساعدوننا كأننا أبناؤهم أو إخوانهم، مقتدين بالحديث النبوي الشريف: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء".

ذهبت إلى ورشة من أكبر ورش الموبيليا في بنغازي، كانت بداية موطء قدمي هناك مع بداية شهر رمضان، فاستبشرت خيرًا بذلك، وما زاد البُشرى أنني وجدت اسم صاحب الورشة على اسم الشهر الكريم، المعلم رمضان التائب، فاسمه على اسم الشهر، ولقب قبيلته على ما نريد أن نكون عليه خلال هذا الشهر الكريم. بمجرد أن أبلغته أني من طرف عم أحمد وأعطيته أمارة قد أبلغني بها عم أحمد، إلا أن قام ورحب بي وقال: "إنت من طرف الناس الطيبين"، أشار لي أن أعمل في المكان الذي أحبه داخل الورشة، فقد كانت الورشة مترامية الأطراف، وما إن قال ذلك لي حتى تذكرت الفنان نور الشريف في بداية مسلسل "لن أعيش في جلباب أبي" وبداية دخوله الورشة، اعتقدت أن هذه بداية رحلة الصعود، لكن لم أتذكر أن أغلب المسلسلات هي مجرد تمثيل، وليس شرطًا ما يحدث في المسلسل أو الفيلم أن يعكس واقعًا يمكن أن يتم تحقيقه في كل زمان ومكان.

وفّر لي المعلم رمضان غرفة صغيرة فوق سطح الورشة، وبرغم حجم الغرفة الصغير، لكن لأول مرة منذ أشهر عديدة أكون في غرفة

بمفردي، يا له من إحساس رائع يستحق شكر الله عز وجل أن أنجاني من كل هذه الأهوال التي عايشتها طوال تلك الرحلة المريرة التي مررت بها.

قمت واغتسلت وصليت ركعتين شكرًا لله عز وجل ودعوت أن يرزقني ويوفقني فيما أنا مقبل عليه في قادم الأيام، وبالفعل بدأت كل يوم باكرًا للعمل، وبالكاد أنتهي من العمل وأذهب إلى غرفتي على النوم مباشرة.

أتى أحد الأيام وقال لي المعلم رمضان: لما لا تأخذ إجازة يا صهيب؟ فقلت له: ولمَ الإجازة؟ أنا سعيد بالعمل. فقال لي: إن زملاءك كلهم يأخذون إجازة، وأنت لم تأخذ يومًا خلال الأسابيع الثلاثة منذ بدئك العمل معنا، خصوصًا أن عملك ممتاز وتستحق عليه إجازة.

بالفعل لم أستطع أن أرد طلبه وأخذت ثاني يوم إجازة، استيقظت باكرًا، لم أنزل للورشة، ولم أعرف ما أعمل، جلست في الغرفة بكثير من الملل، حتى تسحبت يدي على الهاتف لأتصفح الأخبار ثم بعض مواقع التواصل كتويتر وإنستغرام، حتى رأيت مشاهد تبرج، وإذ بي كالمغيب أفتح تلك المشاهد التي توقفت عنها منذ شهور بعد أن أقسمت على نفسي ألا أقترب لها مرة أخرى.

لم أدرِ ما أفعل، كيف أفعل ولماذا أفعل ذلك؟ بعد تلك الرحلة المريرة التي أنجاني الله منها، وكل تلك الاختبارات التي وفقني الله

فيها، أسقط مرة أخرى، وأنا الذي ظننت نفسي تعافيت، كنت مجرد محبوس عنها فقط، أهذا هو الحل أن يتم حبسي؟ ولم أعد قادرًا على التحكم في نفسي؟! بئس الشخص أنت يا صهيب.

****

نكسة

استيقظت اليوم التالي منهكًا، نزلت إلى الورشة متأخرًا، بادرني المعلم رمضان بقوله مازحًا: "أعتدت الإجازة والكسل؟" وهو لا يعلم أنه أسوأ يوم مر علي منذ دخولي ليبيا، ليست أيام التهريب والحبس، لكن يوم الإجازة الذي انتكست به أمس، فما شعرت به كان كفيلًا أن يجعلني أكتئب اكتئابًا حادًا، فقد كنت يائسًا محطمًا بعد كل هذه الشهور التي اعتقدت أنني تعافيت من هذا الإدمان اللعين، وجدت نفسي كنت مجرد تاركًا له محبوسًا عنه، وشتان الفارق بين هذا وذاك.

ظللت الأيام التالية بنسخة باهتة من يوم الانتكاس، أعمل بالنهار بدون إبداع، وأنهي ساعات العمل لأهرب من الواقع إلى شاشة الهاتف الجوال، كلما أغلقت الباب على نفسي، أفرغت مللي ووحدتي وغضبي في هذه العادة القبيحة التي أنهكت جسدي وشتت تفكيري، ولم يعد ذهني صافيًا إلا لكي أبحث عن المزيد من هذا الإدمان، كلما نويت وقررت بدء برنامج جديد للتعافي من تلك العادة السرطانية، سحبتني مرة أخرى لأهوال ظلامها.

ظهر تأثير الإدمان عليّ في العمل، فقد كنت أوشكت على خطأ مع أحد الزملاء في العمل على المنشار الكهربائي ذكرني بما حدث لأبي

في الورشة، حين لم أرد على اتصاله ولم ألحق به عندما اعتمد عليّ، ظل ينزف حتى الموت، هذا الموقف مع زميلي ذكرني بكل سرحان وتوهان سبّبه لي هذا الإدمان.

فقد كان فراق أبي يشكل الجرح الذي لا يندمل مهما مرت الليالي والأيام، وكنت أشعر أحيانًا أنني أنغمس أكثر في هذا الإدمان تخديرًا لذلك الألم الذي أصابني بعد وفاة أبي، فقد فقدت بعدها كل معنى طيب في الحياة. ألقيت اللوم على نفسي وبمفردي دون أن أحكي لأحد، أعتقد لو كنت سردت ما حدث وفضفضت مع أمي، كانت لتخفف عني أكثر مما أصبحت عليه من أن أتحمل عبئًا ثقيلًا على قلبي كلما تذكرته، ولا تفارقني الكوابيس في منامي.

لذلك، بعد حادثة العمل، بدأت أطلب عدم العمل على المنشار الكهربائي، ثم بعدها بدأت أتخوف من استخدام الشاكوش، فعدد المرات التي فلتت فيها المطرقة على يدي أكثر من أن تُحصى، حتى أصبحت أظافري يكسوها السواد من كثرة الطرق عليها، وقد لاحظ عم رمضان مالك الورشة ذلك، وأبلغني أني لست على ما يرام، وألح عليّ أن أبلغه بما أمر، لكني لم أكن أستوعب أن أبوح بهذا السر الذي صحبني من بداية المرحلة الثانوية حتى الآن.

أعتقد لو كنت مدمن مخدرات كان أهون مما أنا فيه، بالطبع قد أكون مخطئًا، لكن مشكلة إدماني هو أمر سري ويلعب على وتر

الشهوة المجانية، وهو ما جعله مزيجًا ما بين الروح والجسد، وهذا ما كلفني انتكاسة كلما سنحت لي الفرصة، حتى في المرات العديدة التي وصلت فيها إلى ما يقرب الشهرين من التوقف، كانت هناك زلات خاطفة، ولكن اعتبرت أن تلك الزلات هي ما قد يقع فيه أي بشر سواء كان مدمنًا أم لا، بسبب تفشي العري والخلاعة في كل مكان في هذا الزمان، إلى الدرجة التي قرأت فيها إحصائيات عن هذا الإدمان في بعض الكتب التي سمعتها في برنامج التعافي، وجدت أن إحدى الجامعات الكندية أرادت أن تقوم بعمل بحث بين الطلاب الذين تعرضوا لمحتوى إباحي والذين لم يتعرضوا، فلم يستطيعوا أن يكملوا البحث لعدم وجود طلاب لم يتعرضوا نهائيًا لأي مواد إباحية.

وهذا عزز لدي فكرة أن الأمر أصبح شبه مستحيل في عدم التعرض، بل إن الواقع الحالي يفرض علينا التعلم كيف نتعامل مع المغريات والمثيرات الجنسية التي تحيطنا من كل مكان، وهذا ما جعلني أقرأ كثيرًا من خلال المعرفة بالتصعيد في الإباحية، وأنها قد تصل لجعل الإنسان مغيبًا عن الوعي، فيتحرش بهذه أو قد يغتصب تلك مهرولًا وراء شهوة زائفة وزائلة لا نهاية لها إلا الهلاك.

لكن برغم قراءتي للعديد من الكتب ومحاولاتي في التعافي عشرات بل مئات المرات، أجد نفسي أدور حول هذا المستنقع وأعود لأقع

فيه، فلم أجد أن الوعي الذي كونته عن أضرارها يمنعني، ولا التدين الذي نشأت عليه يزجرني، بل كلما شاهدت انغمست وطلبت أكثر، كشارب الماء الأجاج لا يرتوي أبداً بل يظل ظمآنًا، وأكثر من ذلك كلما انغمست أكثر كلما زادت الشهوة أكثر على عكس المتوقع أن المشاهدة ستطفئها حتى وإن شعرت بذلك، وكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وظللت أتذكر هذه الدائرة التي عايشتها منذ بداية الإدمان ولا أجد مخرجًا منها، برغم العديد من المحاولات بشكل مختلف ولو ظاهريًا، فمرة قمت بعمل جدول لمهام يوم منذ الاستيقاظ لصلاة الفجر وحتى النوم، لكن الإدمان لا يريد أكثر من دقائق تختلي بها بنفسك، حتى المرات التي تخطيت الشهر فيها وكنت لا أختلي بنفسي إلا للنوم، كانت التخيلات الجنسية والأفكار الإدمانية لا تكاد ترحم عقلي من التفكير فيها، فمرة أقاوم ومرة أسترسل، حتى تكونت عندي قناعة في بعض الأحيان أنه لا يوجد تعافٍ كامل.

فمن فقد مثلي كل شيء تقريبًا وتدمرت حياته حرفيًا بسبب هذا الإدمان ولم يتركه بعد، قد يعتقد أنه ليس هناك طريقة للخلاص أو الفكاك من هذا الإدمان، لكني حتى في تلك الفترة لم أترك القراءة عن هذا الإدمان ومضاره وانتشاره، للدرجة التي وجدت أن حتى الفتيات منهن من وقعن فيه، وحتى المتزوجين الذين كنت أعتقد أن إدمانهم

سينتهي بالزواج، لكن وجدت عكس ذلك في كل الكتب والعديد من الحالات التي سمعتها في مجموعات التعافي.

فالمتزوج بدون أن يتعافى لن يكون إنسانًا سويًا ولن يرى المرأة كزوجة، بل يراها كسلعة، ولا ينتظر منها مودة ورحمة بقدر انتظاره ما يراه فيما شاهده، وهذا مستحيل! فما تراه في المشاهد ما هي إلا ممثلة إباحية باعت عرضها من أجل المال، فكل مشهد لم يكن كما يريد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة يعيدونه مرة أخرى، فترى ما لا يمكن أن يكون واقعيًا، عكس زوجتك الطاهرة التي أحلها الله لك، فهي تقوم بمهام المنزل وأيضًا تحمل وتلد وترضع، كل هذا لا يقارن بالأخرى التي مرت على كل برامج المونتاج، بالإضافة إلى أنك في الإباحية كثير التنوع عكس ما تجده في الزواج، فهي مجرد زوجة واحدة لا تتغير، فبالتالي الزواج قبل التعافي هو كارثة على الطرفين قد تؤدي إلى الطلاق أسرع مما يتخيل الجميع.

أعتقد أن كم المعلومات التي قرأتها عن الإدمان جعلتني موسوعة أكثر من بعض المعالجين النفسيين، ولكن كيف لا أستطيع أن أتعافى وأنا قرأت كل هذا الكم من المعلومات؟ وجربت العديد من الطرق للتعافي، وظل هذا السؤال الذي لم أجد له إجابة، لماذا لا أتعافى برغم البرامج التي اتبعتها وبرغم إحساسي الصادق الذي يريد التعافي؟ كم الليالي التي بكيت فيها بسبب الانتكاس، وكم بداية

جديدة كل مرة قلت فيها لنفسي إنها آخر مرة أقوم بهذا الأمر الذي أثر على شخصيتي وعلاقاتي بأسرتي ودراستي وعملي وكل أمور حياتي، لكن تدور الدائرة وأسقط.

أيقنت أن هذا الإدمان ما يحتاج إلا للحظة، مجرد ضغطة زر وتكون في عداد المنتكسين، وهذا خطره في أنك لا تحتاج إلى أي مادة تتعاطاها، فلن تحتاج لأي شخص آخر، مجرد لحظة زلل تجد نفسك انتكست، وهل نحن كبشر معصومون من الزلل؟ هل سنستطيع أن نتحكم في أنفسنا طوال حياتنا في ظل تلك المغريات من أي زلة؟ إدمان أخذ بتلابيبنا عشرات السنين.

حاولت كثيرًا إخلاص النية وأخذ الأمر بشكل عملي من خلال فك الربط بين الإباحية والعادة السرية، فطالما وجدت المكافأة في النهاية سيظل عقلك متحفزًا لها، وبمجرد أن ينزلق عقلك الإدماني لأول مشهد ستدور الدائرة حتى تسقط، فوجهت عقلي كثيرًا لأمور أخرى لها نهايات بها مكافأة كتعلم أمر جديد لتغيير نمط المكافأة في عقلي الإدماني وصبرت على ذلك، لكن كانت المشكلة الكبرى أن الدوبامين في الإباحية دوبامين رخيص، لا يحتاج لمجهود ويفرز بشكل كبير، عكس الواقع لابد أن تجتهد كثيرًا وستجد دوبامين أقل، وهذه القاعدة لا يتقبلها هواك بسهولة، خصوصًا مع هجوم الأعراض الانسحابية عليك في بادئ أيام التعافي.

ظللت فترة آخذ اليوم بيومه لا أفكر في تسعين يومًا ولا حتى عشرين يومًا، اعتقدت أن تفكيري في الوصول لرقم كبير يسبب لي إحباطًا وهو ما يجعلني أنتكس، ولكن حتى هذه جعلتني في بعض الأيام مع هفوة واحدة أشعر وكأني لست في برنامج يحتويني، فلم أعد أعرف هل هذه البرامج (برامج التعافي، أو برنامج الاثني عشر خطوة، أو نموذج الحرية، أو غيرهم) غير مكتملين أم الخطأ عندي أنا.

حينها قررت أن آخذ خطوة جريئة في رحلة التعافي المتعرجة هذه، فقد رأيت رقم أحد المعالجين النفسيين في إحدى مجموعات التعافي، وقررت أن أتابع معه بعض الجلسات وأيًا ما يكن ما سيطلبه خلال الرحلة سأقوم به، حتى لو طلب مني ترك العمل، خصوصًا أني أصبحت أتغيب عن الورشة أكثر مما أحضر.

وبالفعل تحدثت معه وسردت له معاناتي كلها من أول معرفتي بالأمر حتى ما آلت إليه الأمور الآن، فما كان منه إلا أن قال لي إن طريق التعافي ليس وعيًا فقط، أي أنك تظل تقرأ كتبًا وتجرب هذا البرنامج فترة، ثم ذاك فترات، وتظل تقوم وتنتكس وتشعر أنك لم تصل لشيء، وأكد لي أن أكثر ما يعلمك ويزيدك خبرة للتعافي هو انتكاساتك، إذا أحسنت تحليلها والأسباب التي أدت للوقوع فيها، على ألا أستسلم للأمر مهما حدث، وأن الإنسان ما عليه إلا الأخذ

بالأسباب والسعي، أما النتائج فهي على الله، وأن يرى الله فيك صدقًا يعينك.

أعطاني جدولًا بعد الجلسة الثانية، لم أرَ أنه أفضل مما صنعت لنفسي بعد العديد من التعديلات التي قمت بها خلال السنوات الماضية، ولكن كان في جدوله بعض العناصر الجديدة، بالفعل استمريت عليه عدة أسابيع وأتابع معه، لكن مع غيابي من الورشة كثيرًا، حذرني عم رمضان أن غيابي إن كثر عن ذلك فسيخرجني من الورشة، وهو ما سبب لي ضغطًا جعلني أترك التواصل مع المعالج لفترة أسبوعين ولم ألتزم بالجدول كاملًا في هذين الأسبوعين، شعرت حينها أن الجدول في حد ذاته ثقيل على النفس من بنوده والتزاماته، عكس ما شعرت أول ما بدأت فيه.

بعد ترك التواصل مع المعالج لمدة أسبوعين والتهاون في بنود الجدول، جاء اليوم المتوقع فانتكست انتكاسة جديدة بعد أكثر من شهر من التعافي، وهو ما جعلني أشعر بفقدان كل مجهوداتي السابقة في محاربة هذا الإدمان، برغم تكرار المعالج أن الانتكاسة إذا أحسنت استغلالها وتحليلها هي أكبر بوابة لتحقيق التعافي الحقيقي، لكن عند الانتكاس تشعر أن عقلك يندمل ولا يرى أمامه إلا الإحباط واليأس.

بعد عودة التواصل مع المعالج مرة أخرى، أبلغته بما جرى من انتكاسات، فما كان منه إلا أن نصحني ألا أيأس، ولابد أن أتعلم من أخطائي وأحدد الأسباب الجوهرية التي أبعدتني عن التركيز في التعافي، برغم كل هذه النصائح لا أعلم لماذا أتعثر كلما أردت أن أنطلق، هل هو ضعف إرادة أم قلة إيمان أم كليهما.

أثر هذا على علاقتي مع عم رمضان مالك الورشة الذي استاء كثيرًا من غياباتي، حتى في حالة حضوري للعمل أكون شارد الذهن في مهنة لا تحتمل السرحان ولو دقيقة واحدة، أصبحت حتى أتهرب من الجلوس بمفردي في الغرفة بالذهاب إلى المقهى القريب لعله يقلل من وتيرة انتكاساتي والدوامة التي انغمست فيها مؤخرًا، تعرفت على أشخاص في المقهى كانوا يعملون في أماكن قريبة من الورشة، كنت أعرفهم شكلًا، لكن لا أعرفهم شخصيًا، ذكرت لبعضهم أنني أريد أن أغير مهنة النجارة، منهم من قال لي إنني في الغربة بدون مهنتي لا أساوي شيئًا، ومنهم من عرض عليّ العمل في مجال المعمار، لكن لم يستهوِني الأمر، وهو أن أقوم بعد كل تلك السنوات في مهنة النجارة بتغيير المهنة تمامًا، فلو كانت مهنة قريبة من نجارة الموبيليا كنجارة الباب والشباك مثلما قام عم أحمد في طبرق بتوفير عمل لي في هذا المجال سابقًا، أما مجال المعمار له جوانب كثيرة من الكهرباء للتشطيبات وأعمال البناء وقد يكون أقربهم لمهنتي مهنة النجار المسلح في الأعمال الإنشائية.

أثناء جلوسي يومًا على المقهى سمعت أذان العشاء، تركت ذلك وذهبت للمسجد لأصلي العشاء في جماعة لعلها تكون فاتحة خير في مسار التعافي المتذبذب لدي، وعندما أقيمت الصلاة لم أجد من يؤمهم فقدمني رجل مسن لأصلي، وبرغم كل دوامات الانتكاس التي كنت فيها، كنت ما زلت محتفظًا ببعض من الشخصية الأزهرية المتدينة بداخلي، فلم أنسَ يومًا مهما حدث أنني خريج جامعة الأزهر كلية الدراسات الإسلامية، وبالفعل تقدمت لصلاة العشاء، صليت بهم في الركعة الأولى بخواتيم سورة البقرة، وفي الركعة الثانية بخواتيم سورة الكهف، وما لفت انتباه أغلب المصلين دقة أحكام التجويد عندما قرأت، والصوت النقي الذي حباني الله إياه.

و بعد انتهائي من الصلاة اقترب مني هذا الرجل المسن الذي قدمني للصلاة وسألني: ماذا أعمل؟ فأبلغته أني أعمل في ورشة نجارة موبيليا كنجار، وسألني عن المستوى التعليمي الذي بلغته، فأبلغته أنني حاصل على ليسانس دراسات إسلامية قسم شريعة، وهو ما جعل هذا الرجل مستبشرًا، ورأيت البشاشة على وجهه، أبلغني أنهم يبحثون عن إمام للمسجد منذ فترة، وهم مستعدون أن يعطوني أكثر مما آخذه في الورشة مع توفير سكن لي، فأبلغته أن يتركني للتفكير، ولم أرد أن أبلغه أني أساسًا أريد ترك مهنة النجارة وأعمل شيئًا آخر، فأحببت أن أترك لنفسي فرصة للتفكير عند العودة للسكن.

عند عودتي لغرفتي ظلت تلك الفكرة تدور في رأسي، وهي ترك الورشة والذهاب للعمل كإمام للمسجد، لكن ظلت فكرة أن إدماني أثر عليّ وأنا نجار أعمل أمام عم رمضان، فماذا سيفعل إدماني بي وأنا أعمل إمامًا أمام الله عز وجل، فوجدت أنها جرأة على الله عز وجل أن أخطو تلك الخطوة بدون التعافي الكامل من هذا الإدمان القاتل للتركيز، لم أكن أعرف كيف أركز في الصلاة وأنا إمام، ومراجعات القرآن، فضلًا عن خطب الجمعة والدروس، وكل ما يتطلبه هذا الأمر من اتزان خارجي وطهارة داخلية. فالأمر لم يكن مجرد وظيفة، ولكنه كان بالفعل مهمة سامية، أبى الإدمان ألا أقتنصها.

خسرّني في البداية أسرتي، ثم حلمي بالوصول لكلية الهندسة، ثم مهنتي، وجعلني مترددًا غير قادر على اتخاذ قرار الخوض في غمار مهنة أخرى، ولا حتى قادرًا على الإمساك بفرصة أقرب ما تكون لتخصصي الدراسي، وما أندر تلك الفرص التي قد لا تأتي في العمر مرة.

ظللت مستيقظًا تلك الليلة حتى أذن الفجر، ذهبت للصلاة في نفس المسجد لأجد الشخص المسن الذي عرض علي الوظيفة للعمل كإمامٍ للمسجد، جلست بجواره بعد الصلاة، وشعرت من الابتسامة التي رأيتها على محيّاه أنه اعتقد أني وافقت على عرض الوظيفة،

لكن عندما أبلغته برفضي، لم تختلف ابتسامته كثيرًا، وما كان منه إلا أن قال لي: إن هناك أماكن يوفقنا الله للعمل فيها بقلوبنا وليس بأعمالنا، ثم دعا لي بالتوفيق والسداد، وبرغم أنني لم أكن أستوعب كثيرًا الجملة التي قالها، لكن الدعاء الذي دعاه لي اخترق قلبي، وشعرت كم كان صادقًا هذا الشخص وهو يدعو لي.

تغيبت يومًا جديدًا عن العمل، نهضت وصليت الظهر حين أذن العصر، فألحقته بالعصر كأني أؤدي وظيفة لا خشوع فيها ولا الروحانيات المطلوبة في الصلاة، نزلت من غرفتي متجهًا للمقهى كالعادة، فرآني المعلم رمضان فنادى علي وأبلغني أن الأمر فاق حده، وأن أمامي حتى آخر الشهر لأخلي الغرفة وأترك الوظيفة، لأنه سيأتي بشخص آخر غيري، وعلى عكس ما توقعه عم رمضان أن آتي بمبررات أو أذكره باجتهادي في بداية عملي، لكن أنصتُّ لما قاله، وأبلغته أني قبل نهاية الشهر سأحاول إخلاء الغرفة، ثم استكملت طريقي للمقهى.

ذهبت إلى المقهى يومها باكرًا عن ميعادي المعتاد، فلم أجد الأشخاص الذين كنت أجلس معهم عادةً، غير أني وجدت شخصًا لم أره من قبل على تلك المقهى، فاستأذنته في الجلوس على طاولته، فرحب بي، قمت بالتعرف عليه لعلّي أجد عنده فرصة عمل أحقق بها طموحي الذي لا أعرف ما هو.

فعندما أبلغته بما يدور في رأسي، فاجأني بما عرضه عليّ، لم تكن مهنة كما كنت أبحث، ولا وظيفة كما عرض علي الشيخ المسن في المسجد، لكن ما عرضه عليّ لم يأتِ في مخيلتي ولا حتى في أحلامي، لقد عرض عليّ أمرًا بمجرد سماعه زاد الأدرينالين في جسدي ما لم أشعر به من قبل، وبرغم أنه قالها بكل سهولة كأنه يقولها كل يوم، ولكن وقعها كان عليّ مختلفًا، لقد قال لي بكل بساطة: إيه رأيك في الهجرة لإيطاليا من خلال البحر؟

****

بما يفيد الندم

ذهبت إلى قبر أبي، وما إن وصلت إلى قبره حتى تخالطت المشاعر، لا أعلم أهو ندم أم حزن أم حسرة أم ألم؟!! ... صمت طويلًا لا أعرف ماذا أقول؟ حتى فاضت عيناي بالدمع الذي كان كصنبور ماء كُسر فأخذت المياه تنهمر منه، وقلت بصوت مسموع: أبي الغالي، هل تراني؟ هل تشعر بي؟ هل عندك علم بما أنا فيه أو ما مررت به؟! قد دفعت الثمن غاليًا جدًا أيها الغالي، قد دفعت ثمن كل ذرة عرق بذلتها من أجلي وما قدرتها، دفعت ثمن الحلم الذي لم أحققه لك بأن ألتحق بكلية الهندسة، دفعت ثمن قهرك ووجعك على حالي غير المفهوم، وتقصيري في مذاكرتي وعملي، دفعت ثمن خوفك وقلقك عليّ بينما كنت أغط في بحار هذا الإدمان القاتل، دفعت ثمن لجوئك إليّ في آخر لحظات عمرك وتخليت عنك بسبب ذلك السرطان الذي سرى في عقلي، وانفجرت بالبكاء والنحيب، وخارت قوى قدمي فلم تعد تحملني حتى جثوت على ركبتي وأنا أستند على قبره، وكاد قلبي ينشق من البكاء والألم، لم أشعر بالوقت، وكم مكثت في بكائي هذا؟ حتى شعرت بيد تمسح على كتفي برفق، ظننت أنه أخي جمال تبعني إلى قبر أبي، وما إن أدرت وجهي حتى وجدت ما لا يمكن أن أتخيله أبدًا!!!

أبي؟! كيف أنت هنا! هل تشعر بي؟! فنظر إليّ بابتسامة ووضع كفه على خدي ومسحه، ثم قال: يا بني، طالما كنت معك طوال رحلتك، ودائمًا كنت أدعو الله لك.

فأمسكت بيده وظللت أقبلها وأمرغ بها وجهي، وعيناي تنهمران بالدموع، قلت له: هل سامحتني يا أبي؟ هل غفرت لي ما كان مني؟ أنت تعلم أنك أحب مخلوق إلى قلبي في هذه الدنيا؟ تعلم أني لم أحب أحدًا مثلما أحببتك، لكن غلبتني نفسي، ولم أستطع حتى البوح لك بما كنت فيه، وها أنا اليوم أبوح لك يا أبي، قد كنت في..... فلم يمهلني أبي أن أكمل كلامي حتى وضع يده على فمي وقال: علمت ما وقعت فيه يا بني، المهم أن تكون قد تعلمت الدرس يا بني.

تعلمت يا أبي، علمتني الدنيا ما عجزت عن تعلمه منك، علمتني الدنيا وعلّمت على جسدي علامات لا يمكن نسيانها أبدًا، مررت بأشياء لم أكن أمر بها مطلقًا وأنا بجوارك، لكن حينما تخليت عنك وخسرتك قد خسرت الدنيا كلها، ذقت من الدنيا مرارًا لم يطعمه أحد فيها، هدمت فيّ أشياء وهدمت في أركان، جعلت مني صهيبًا آخر غير الذي ربيته يا أبي.

مسح بيديه على رأسي وقال: المهم أن تكون استفدت يا بني من تلك الرحلة، لأن الدنيا كلها عبارة عن رحلة كبيرة، نمر بداخلها

برحلات صغيرة، منها المر ومنها الأمر، ومنها ما يكون يسيرًا، ومنها ما تظنه مستحيلًا، ولكن أحسن الظن بالله وتوكل عليه يكفك.

الحمد لله يا أبي، اليوم أنا أكمل مسيرتك ولكن في مكان آخر من الدنيا، أمتلك ورشة كبيرة كورشتك، ورزقني الله ببنت وولد، وأسميت الولد على اسمك الغالي، وأسميت البنت على اسم أمي تحية، التي بها تحيا قلوبنا وتضيء دروبنا.

لا يهم يا بني في أي مكان من الدنيا أنت، فالملك كله لله، والأرض كلها أرض الله، ولا يختلف إلا الوجوه واللهجات، وأينما كنت تجد أحبابك بجوارك، لا يهم أن يكونوا بأجسادهم، ولكن أرواحهم دائمًا تجدها حاضرة في كل وقت وأي مكان.

ثم ضمني إليه شديدًا، ذلك الحضن الذي اشتقت إليه كثيرًا، فأخذت أمرغ نفسي بين أحضانه وأشم رائحته التي تشوقت إليها، ولم أشعر إلا بيد أخي محمد يوقظني وأنا ملقى على قبر أبي وعيناي ممتلئة بالدموع بعدما دخلت في نوبة إغماء لا أعلم كم من الوقت بقيت، لكنه افتقدني وأخذ يبحث عني، لم أتخيل أنه حنون بهذه الدرجة، فكنت دائمًا أشعر أنه ذو قلب قاس لا يشعر بأحد ولا يبالي إلا بنفسه، أوقفني وأخذ ينفض عني التراب وقال: أعلم أنه كان أحب الناس إليك، وعندما افتقدتك ولم أجدك في أي مكان توقعت أنك هنا بجواره، هون عليك يا أخي، فهذا مصير كل حي، ضمني إليه

واعتقدت أنها المرة الأولى التي يحتضنني فيها، لا أعلم لماذا شممت فيه رائحة أبي؟! لكنه مع قسوته التي كنت أعتقدها، أخذ حكمة أبي وحميته في العمل وبنى مستقبله بنفسه، هوَّن علي ألمي وأخذني من يدي كطفله المدلل وعاد بي إلى المنزل.

****

عمر جديد

كيف وصلت إلى هذا الحال، وأنا الشاب الملتزم الأزهري حافظ القرآن، كيف تمكن مني إدمان هذا الشيء؟ وكيف تسببت في موت أبي، مع أنه ليس لي دخل بقضاء الله، لكني تخليت عنه عندما لجأ إليّ، كيف أوافق على بيع ورشة أبي آخر ما تبقى لي منه دون علم أمي حتى؟ وكيف أهاجر وأترك أمي بقلب منفطر على غيابي؟ تركت بلادي وذهبت إلى ليبيا ظنًا مني أن هناك الخلاص، لكن دون جدوى، فقد دمّر هذا الإدمان مستقبلي هناك أيضًا حتى تركت ورشة عمي رمضان، ثم وافقت على هذه الرحلة الانتحارية دون حساب ودون تفكير، ألهذا الحد قد دمّرت الإباحية عقلي؟

ستموت يا صهيب، ستموت بعد هذا العمر وبعد هذا العلم بالله وحق الله، أيُرضيك أن تموت هكذا؟ غريقًا في بحر غريب لا يعلم عنك صديق ولا قريب؟ لم تُدفن، ولم يُصلَّ عليك، ولم تحظَ بوداع يليق بكونك مسلمًا فضلًا عن أنك آدمي، لا من أمك ولا من إخوتك ولا من أصدقائك أو أقاربك، كيف استطعت أن تحرق قلب أمك بهذا الشكل؟ كيف لك أن تستسلم لهذا الإدمان وتدعه يتمكن منك وتدمّر به دنياك وآخرتك؟ ماذا ستقول لله عند العرض عليه؟ ما هي حجتك؟ وما هو الدافع؟ أيئست من رحمة ربك؟ أنسيت أن

لك ربًا يراك ويرعاك ويرحمك وينتظرك تعود إليه؟ لماذا لجأت للحبل؟ ثم للسترة ثم لصاحبك السوداني؟ لماذا لم ترتكن إلى الله؟ لماذا لم تقل يا رب بدلًا من أن تستعطف ذلك السوداني؟ أفق يا صهيب، أنت مسلم، لك ربٌّ دائم المغفرة، ولا يغفل عن حاجة عبده إليه أبَدًا.

بدأت أستجمع قواي الإيمانية بالله، وبدأت أوجه قلبي إليه ونسيت الدنيا ومن فيها، لم أخف من الموت أبدًا، لكني خفت أن ألقى ربي بذلك القلب الخرب، هذا القلب الذي زاحم الإدمان فيه حب ربي وديني، وجهت قلبي إليه وقلت: يااااااااااااا رب، ليس لي إلاك، يا منجي يونس في بطن الحوت، ها أنا عبدك الضعيف ألجأ إليك، وليس منجى ولا ملجأ إلا إليك، يا رب، اللهم إن عبادك سواي كثيرون، وليس لي رب سواك.

لم أشعر بالمدة التي مرت، ولكنها مرت عليّ كالأعوام، سمعت من بعيد صوت محرك وكان كأنه طوق النجاة، ثم شعرت بيد تسحبني إلى أعلى حتى طفوت على سطح الماء والتقطت أنفاسي بعدما كدت ألفظ آخرها، فإذا به هو صاحبي السوداني، عندما أدرك أن خفر السواحل الإيطالي وجدونا على آخر رمق من حياتنا، وكدنا نلحق بمن كانوا معنا في القارب، فغطس هذا السوداني لينقذني بعدما رأى مني تلك النظرات التي شقت قلبه، حسب ما أخبرني لاحقًا، لكنه

لم يتحرك إلا عندما لجأت إلى الله، فجعله الله سببًا لإنقاذي، وهذا أيضًا درس سريع مهم تعلمته، أنه مهما كانت حاجتك للبشر عليك أن تطلبها من الله أولًا فيسخره الله لك، وقادر جل جلاله على تسخير الكون كله لك، ولكن عندما تلتزم بكونك عبدًا لله تطلب منه وتتضرع إليه، ولا تلجأ إلا إليه، أخذ بيدي من قاع البحر إلى سطحه.

اقترب القارب الضخم التابع لخفر السواحل الإيطالي، ورموا لنا حبالًا على شكل سلالم، ويصرخون فينا بالإيطالية أن نصعد، وكان بعضنا لا يقدر جسديًا على الصعود بالنسبة للحالة البدنية التي هو فيها، فأغلبنا لم يكن تناول طعامًا أو ماءً من الليلة الماضية، ومع هذه الليلة العصيبة التي اعترانا فيها الجوع، أصبحت أجسادنا هزيلة غير قادرة على صعود السلم الحبلي، لكن نظرة البعض وكأن الحياة معلقة بهذا الحبل جعلتهم يقومون بما لم يكن متوقعًا من أجسادهم أن تفعله.

حين صعدنا إلى سطح القارب بكينا جميعًا، لكن لأسباب مختلفة، فهناك من بكى على حاله، وهناك من بكى على من فارقه، وهناك من بكى على وصوله لمبتغاه.

تم نقلنا بعد ذلك من خلال القارب إلى ميناء لامبيدوزا، حيث مأوى خاص للمهاجرين غير الشرعيين، حيث تم تقديم لنا أغطية صوف

وطعام وماء، برغم أننا نجونا عشرة من خمسين، لكن شعرنا وكأنهم من نجوا ونحن من غرقنا في البحر، أو على الأقل غرق منا شيء في ذلك البحر لم ولن يعود أبدًا.

بعد أن تم نقلنا إلى مخيم اللاجئين في جزيرة لامبيدوزا، بدأت رحلة جديدة لاكتشاف شخصيتي بوعي أكبر، وللإبحار في أغوار النفس بشكل أعمق، فقد كنت في جميع المخاطر التي خضتها أعتقد أن الموت أقرب لي من الحياة، حتى رحلة البحر التي دخلتها على أمل ألا أنجو، فنجا من تمنى الموت ومات من كان يحلم بالحياة، عشت الأيام الأولى في هذه الجزيرة ذات المناظر الخلابة بين الرمال الصفراء والخيام البيضاء المنصوبة التي تهزها الرياح يمنة ويسرة، كنت أشارك الخيمة مع شخص إثيوبي وصاحبي السوداني.

كنت أعلم أن بقاؤنا في هذه الجزيرة فترة مؤقتة سواء طالت الإقامة أو قصرت، لذلك لم أكن أتأفف على أي أمر لا يعجبني، لدرجة أني تدبرت في هذا الأمر وسألت نفسي: لماذا لا أتعامل مع الحياة الدنيا كلها بنفس هذا المنطق؟ فهي سواء طالت أو قصرت مؤقتة، وأن كل مرٍّ سيمرّ مهما طال علينا الأمد.

كان اليوم في المخيم عبارة عن استيقاظ بعد ليلة باردة من الصقيع الأوروبي الذي ما زالت أجسامنا لا تتقبله مهما بلغت درجة حذرك من خلال عدد الأغطية التي تتلحف بها، فقد كان الهواء البارد

يتسلل لأجسادنا المرهقة التي لم تتعافَ من أهوال رحلة الموت بعد، فقد كنا نستيقظ للوقوف في طابور طويل تحيطه أحبال غليظة على الجانبين لعدم اختراق طابور انتظار الطعام، وما أن يتم الانتهاء من هذه العملية الطويلة، كان يبدأ البعض في مساعدة المشتغلين في المخيم من حمل الأدوات الغذائية لمكان إعداد الطعام، وكنت أنا أساعد بعض الناس في تثبيت الخيام بعوارض خشبية، ثم بعد ذلك بدأت بعمل بعض المناضد من الخشب المتوفر للمساعدة في تجهيز الخيام من الداخل، فقد كانت لا تحتوي على عديد الأثاث لمقومات الحياة الأساسية.

كنا نظل كذلك حتى موعد وجبة الغذاء التي يسبقها كالعادة نفس الطابور الطويل، لكن الحمد لله أنهم كانوا يعطونا مع وجبة الغذاء الساخنة كيسًا به وجبة العشاء ليوفروا علينا هذا الطابور الطويل مساءً، كان أغلبنا بعد الغذاء وفي فترة غروب الشمس يجلس يتسامر مع الآخرين من غير خيمته من باب المعرفة وأيضًا من باب تعلم الإيطالية، فمنهم أشخاص كثيرون كانوا يتحدثون اللغة الإيطالية بشكل جيد جدًا، وقد كان يتخلل تلك الأحاديث قصص رحلة الهجرة لكل فرد، فكان لكل شخص تجربة مختلفة عن الآخر، فمنهم من فقد ابنه في عرض البحر ولم يتمكن من فعل شيء، ومنهم من فقد عقله، فكنت أجد أناسًا يهيمون على وجوههم داخل المخيم، وعندما كنت أسأل بعض من كان في المخيم عن شأنهم، فكانوا

يخبرونني أنهم منذ إنقاذهم من البحر وهم على هذه الحالة، سمعت أيضًا قصة عن شخص فقد ساقه بسبب هجوم قرش عليه في وسط البحر، برغم عدم تأكدي من روايته لأن معلوماتي أن القروش في البحر المتوسط نادرة الهجوم، لكن هذه القصة كانت اكتمالًا للأهوال التي سمعتها، وجعلتني أنصح أي شخص بعد ذلك ألا يقترب من التفكير في الهجرة غير الشرعية عن طريق البحر مهما كانت المغريات.

بعد مدة في المخيم بدأت الطوابير مرة أخرى، لكن هذه المرة ليس من أجل الطعام بل من أجل التحقيق، استبدلوا الحبال بأسلاك شائكة، وظلوا يستخرجون من كل شخص أي أوراق نجت معه من رحلة البحر للاستدلال على أصوله، فكان هناك بعض الجنسيات تتنكر بلهجة جنسيات أخرى لعلها تحصل على تقنين أوضاع أسرع، فمثلًا الجنسية السورية أسرع من غيرها في الحصول على اللجوء، وكانوا يسألون كل شخص عن مهنته أو مؤهلاته أو خلفيته الدينية والاجتماعية، عندما وصلت أنا لم أنجُ إلا بجواز سفري المبلل الذي آثرت وضعه في جيب بنطالي عن وضعه مع متعلقاتي الشخصية في شنطة السفر التي غرقت وتركتني في عرض البحر.

دخلت على المحقق الذي لم يكن موجودًا في الغرفة البلاستيكية التي أدخلونا إياها، وكانت تشبه غرفة الكرفان المتنقل الذي تجره

السيارات، وإذا بي أسمع بكاء من غرف متلاصقة وشخصًا ينكر انتماءه لأي تيارات متطرفة، وسيدة أخرى صوت نحيبها يعلو كلما ذكرت فقد عزيزٍ لديها حين غرق القارب، وفي أثناء تركيزي مع هذه السيدة وذاك الرجل الملاصقين للغرفة التي أنا فيها، إذ بالباب يُفتح بقوة ويدخل منه رجل متجهم الوجه أوروبي الملامح يخلفه شخص مصري الملامح، فنحن نعرف بعضنا من بين جميع دول العالم قاطبةً، كان الرجلان يلبسان لباسًا رسميًا، بدلة رسمية ورابطة عنق أنيقة، بدأ الشخص المصري بالتحدث معي: هل أنا بحاجة لمترجم أم أتحدث الإيطالية؟ أخبرته أني ما زلت في مرحلة التعلم وأعرف بعض الكلمات، بدأت أكون بعض الجمل، فأخبرني أني هكذا سأحتاج لمترجم، وأنه سيجلس معي يترجم بالعربية، كنت أعتقد أنهم يعرفون أني مصري فلم أكن أخرجت جوازي بعد، لكن علمت بعد ذلك أن هذا المصري يأتي لكل العرب تقريبًا الذين لا يتحدثون الإيطالية كمترجم أثناء التحقيق، حينها تذكرت شهادة شخص كويتي كنت قد شاهدتها على اليوتيوب عندما اعتقلوه في غوانتنامو، فكان يحكي أنه حين تم التحقيق معه بالإنجليزية التي لا يجيد الحديث بها كان المترجم مصريًا أيضًا، علمت حينها أننا يبدو محترفون لتلك المهنة أو هكذا يعتقد العالم عنا.

سألوني عن اسمي فأبلغتهم أن اسمي صهيب جمال، وأنني معي جواز سفري المصري، فلم أكن أخاف من أمر تأخير التقنين أو غيره من

الأمور، فلم أحب أن أخفي جنسيتي لأي أمر من هذه الأمور، أحببت أن أكون موجودًا في هذه البلاد بهويتي الطبيعية إن قدر الله لي البقاء فيها، نهضت وأعطيتهم جواز سفري المصري بكل فخر، بيد أنهم عندما أمسكوه قرؤوا بياناتي وترجم المصري لهذا الإيطالي المكتوب، وجدته قد أوجس مني خيفة، لكن لم أعلم لماذا ظلوا يقلبون أوراق جواز سفري حتى تحدث المصري وقال لي: كيف دخلت ليبيا؟ حينها علمت ما كان يخيفهم، فلم يكن لي ختم دخول لليبيا، وهذا معناه أني دخلت تهريبًا، وهذا ما أخافهم، أو هذا ما اعتقدت أنه أخافهم، ولم أكن أعلم ما أخاف هذا الإيطالي حقًا.

بعد معرفتهم أني وصلت ليبيا تهريبًا وشرحت لهم أني لم أكن أنوي دخول ليبيا بهذا الشكل غير القانوني، إلا أنني تعرضت للخداع من أحد الأصدقاء، لكن برغم أنهم تحدثوا معي بشكل يبدو عليه أنهم صدقوني، فلم تتغير تعابير وجوههم، وكانت تقول عكس ذلك، وعيونهم كانت تنطق أن من يهرب مرة يهرب كل مرة، والذي جعلك تدخل إيطاليا هربًا من البحر فبالتأكيد دخلت ليبيا هربًا من البر.

لكن ما عرفته من خلال الأسئلة التالية أن ما جعلهم يتوجسون مني خيفة ليس دخولي لليبيا بهذه الطريقة، لكن عندما سألني عن باقي أسماء إخوتي فأبلغته محمد وجمال، ظل يؤكد علي: هل هناك أشخاص في أسرتك أسماؤهم مثل اسمك؟ قلت له: بالتأكيد لا

يجوز تسمية الإخوة بنفس الاسم، لكنه بادرني أنه يفهم ذلك، ولكنه يقصد أن أسماؤهم من نوعية أسماء صهيب، كنت ما زلت لا أفهم المقصد، فأخبرني ذلك المصري: هل هناك أحد في إخوتك اسمه مثلًا عبيدة أو القعقاع؟ لم أتمالك نفسي من الضحك بعد اسم القعقاع هذا، لكن بدأت أفهم أن هناك بعض الأسماء يعتقدون أنهم يخرجون من أسر متشددة، ولأول مرة علمت كم العقول الضيقة عند الأوروبيين في بعض الأمور، لم ألمهم ولكن كنت ألوم في داخلي هذا المصري المترجم الذي كان لابد أن يعلمهم أن هذه الأسماء طبيعية ومنتشرة بمصر ولا تدل على أي توجه ديني معين.

بعد أن انتهينا من أمر الاسم وكنت أعتقد أننا انتهينا تمامًا، إذ بدأوا معي في موضوع جديد وبادروني بسؤال: ما هو تخصصي في الكلية؟ فقد كان مؤهلي في جواز السفر مكتوبًا (حاصل على ليسانس دراسات إسلامية)، أخبرتهم أنني حاصل على ليسانس الدراسات الإسلامية قسم الشريعة بجامعة الأزهر، وهو ما أقلقهم أيضًا، ولم أكن أعلم أن هذه التخصصات تقلقهم هكذا إلا أن رأيت ذلك في أعينهم، حينها وعلى عكس الأغلبية كانوا سيتمنون أن لو عاد بهم الزمن ودخلوا كلية أخرى مثل كلية الهندسة التي كنت أحلم بها، لكن ما رأيته في أعينهم كان مصدر اعتزاز في التحاقي بجامعة الأزهر بوجه عام وتخرجي من كلية الدراسات الإسلامية قسم شريعة بوجه خاص.

بعد إنهاء الأسئلة العامة من مهنتي وخبرتي في النجارة وهكذا، وبعض الأسئلة عن ظروفي الشخصية، سمحوا لي مرة أخرى بعودتي إلى خيمتي لأكمل نمط الأيام التالية كالمعتاد منذ أن أتيت إلى هذا المخيم. بعد عدة أيام طلبوني للتحقيق مرة أخرى بأسئلة أكثر تفصيلًا، وظللت على هذا المنوال قرابة الثلاثة أشهر أعود من تحقيق إلى تحقيق، ومن محقق إلى آخر، للدرجة التي جعلتني أفهم أغلب الكلام الإيطالي المكرر الذي سمعته أذناي، بدأت أفهم الكلمات للدرجة التي جعلتني أرد على بعض الأسئلة بدون الحاجة إلى مترجم، حينها تذوقت مذاق اللغة الإيطالية، فقد أعجبت بها ووجدتها لغة لذيذة على اللسان، فاجتهدت فيها حتى قاربت على إتقانها في فترة لا تتجاوز الستة أشهر.

جعلني تعلم الإيطالية أصبر إلى حد ما على الشهور الستة التي كنت قابعًا فيها في المخيم، فكنت من أطول الناس إقامة، فبعض الذين ادعوا أنهم سوريون نجحت معهم الحيلة وتم قبول طلب لجوئهم، لكن أنا انتظرت في المخيم حتى لحق بي أشخاص جدد، أتوا من البحر بقصص جديدة وأهوال جديدة، حينها تم طلبي مرة أخرى للتحقيق، قد كنت سئمت من طول الانتظار، فنويت أن أشدد على المحققين هذه المرة إن أرادوا أن يرحلوني فليفعلوا بدلًا من هذا السجن الذي أقبع فيه، بالفعل هممت لغرفة التحقيق هذه المرة بشدة وفتحت الباب كأنني أنا المحقق، إذ بي أفاجأ بشخص يرتدي

زي الأفارول الخاص بالنجارين، وعنده على الطاولة بعض أدوات النجارة وبعض القطع الخشبية التي تصلح لاختبار نجار مبتدئ، بالفعل عندما سألت الشخص: أين المحقق؟ قال لي: إن اليوم لا يوجد محقق، لكن سألني سؤالًا واحدًا: هل أنت نجار حقًا؟ رددت عليه أني لا أعرف مهنة غيرها، طلب مني أن أقوم بعمل بعض الأمور في القطع الخشبية التي أحضرها، وعندما بدأت بإمساك معدات النجارة كأن حنينًا اعتراني وسرت في جسدي قشعريرة لم أشعر بها منذ مدة، بعد انتهائي مما طلبه النجار، سمح لي بالانصراف ولم أسأله عن أي شيء، فشعور ممارسة النجارة مرة أخرى بعد توقف طويل دام قرابة العام كان بالنسبة لي كمن رأى شخصًا يفتقده ولم يره منذ سنوات.

بعد مدة ليست بالقصيرة سلمني أحد العاملين بالمخيم جوابًا وهو مبتسم ومهنئًا لي على ما فيه، لم أكن أعرف بالطبع ما بداخل الجواب، لكن لأول مرة أشعر أن هناك خبرًا سعيدًا قادمًا بعد تلك الليالي الطويلة من الانتظار، فتحت الجواب، وإذا بي أجد خطاب قبول لجوئي مع توفير عمل لي في مركز إدماج مهني في نابولي.

تم نقلي بباخرة إلى نابولي جنوب إيطاليا، وقد كانت المرة الأولى لي التي تخطو قدماي البر الرئيسي لبلاد الرومان، في نابولي وفروا لي مسكنًا كالعنابر الموجودة بالجيش ولكن مقسمة إلى غرف أصغر،

كل غرفة بها سريران، كل سرير دورين بحد أقصى أربعة أفراد في الغرفة، لكن عندما وصلت وتم تسكيني في الغرفة لم يكن أحد معي تلك الليلة، قضيت ذلك اليوم منفردًا في الغرفة الصغيرة، وإذا بي أجد جهاز كمبيوتر موجودًا بالغرفة متصلًا بالإنترنت، قضيت الليل متصفحًا عليه مشتاقًا لأيام هاتفي الجوال قبل غرقه في قاع البحر المتوسط.

وما هي إلا ساعات قليلة من التصفح على الإنترنت في خلوة لم أجربها منذ شهور، إلا ووجدت يداي تكتبان بشكل غير واعٍ هذا الموقع الإباحي الذي طالما انتكست عليه، لا أعلم كيف لشخص مرّ بكل تلك المواقف والظروف التي أوصلته للحال التي هو عليه، وبعد شهور طويلة من التوقف أن ينتكس بمجرد وجود إنترنت وخلوة، هل هذا ضعف إيمان؟ وإن كان كذلك فكيف كنت في ظل ظروف أصعب في المخيم لم أترك فرضًا واحدًا للصلاة، بل كنت شخصًا أساعد الجميع؟ وإن كان الخلل في إرادتي، فكيف كانت الشهور الستة في المخيم خالية من أي مشاهدة برغم المغريات؟

حينها تأكدت أن الظروف الصعبة قد تكون أفضل للمدمن من الراحة التي تخلق الخلوة وتوفر الإنترنت وتصنع السرية التي يحتاجها عقل كل مدمن، وتذكرت حينها المقولة الشهيرة للفاروق عمر بن الخطاب: "اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم".

قد كانت كل انتكاسة تعطيني درسًا جديدًا في فهم عقلي الإدماني بشكل أفضل والتعامل معه بشكل عملي لا عاطفي، بشكل خططي لا حماسي فقط. تعلمت أن أحلل كل انتكاسة لأتعلم منها، فالبكاء وجلد الذات في مثل هذه المواقف لن يفيد، لكن دراسة العوامل التي تؤدي إلى الانتكاس ومنعها من البداية هي الطريق الوحيد لديمومة التعافي، وهو ما جعلني بعد الانتكاسة مباشرة أقوم لأغتسل وأصلي ركعتين، وأدوّن يومياتي، وأكتب فيها كل العوامل التي أدت إلى هذه الانتكاسة؛ من الضغوطات التي مررت بها حتى خلوتي في السكن. بالفعل ظللت أكتب حتى موعد أذان الفجر الذي تعودت على عدم سماع المؤذن فيه مثل باقي الصلوات، فإيطاليا بأكملها ليست كالقاهرة ذات الألف مئذنة ولا حتى ليبيا ذات المساجد العامرة.

استيقظت باكرًا هذا اليوم على غير عادة الانتكاسات السابقة، فقد دوّنت في يومياتي أن أغيّر هذا النمط وألا تؤثر عليّ الانتكاسة فتفعل بي في إيطاليا كما فعلت بي في ليبيا في ورشة عم رمضان. استيقظت واغتسلت مرة أخرى وصليت ركعتي الضحى، وظللت أقرأ الأذكار حتى طرق الباب ودخل شاب بشوش الوجه يتحدث بلغة إيطالية مكسّرة، عرفت بعد ذلك أن اسمه آدم وهو من لبنان. قال لي: هيا بنا حتى لا نتأخر على الدرس. ذهبت معه وأنا لا أعلم عن أي درس

يتحدث، لكن أردت ترك الغرفة والخروج وهجر تلك العزلة حتى لا تتملكني.

بعد الذهاب دخلنا غرفة أشبه بالصف الدراسي، فهناك مقاعد الطلبة والسبورة والأشخاص الجالسين في الصفوف الأولى كأنهم طلاب في الفصل، برغم أعمارهم المتفاوتة. دعاني آدم للجلوس في أماكن الطلبة، فجلست جواره في مقعد الصف الثالث، ثم دخل شخص عرّف بنفسه أنه مدرس اللغة الإيطالية وأنه سيعطينا دروسًا يومية في اللغة الإيطالية لتحسين مستوانا أثناء فترة إقامتنا في مركز التأهيل. برغم أنني قد أجَدت التحدث باللغة الإيطالية إلى حد ما، إلا أن هذه الدروس أفادتني كثيرًا في أن أثقلت لغتي وجعلتني متمكنًا مع الممارسة اليومية في الورشة، وأصبحت كالمتحدثين الأصليين باللغة.

لم تكن الإقامة في مركز التأهيل سهلة، فقد أصبحت غرفتي ممتلئة بثلاثة أفراد غيري، لكل منهم جنسية مختلفة وعقلية مختلفة، ومواعيد نوم واستيقاظ مختلفة، وهو ما جعلني أكون مرهقًا كثيرًا في التعامل معهم، لكن كلما تذكرت أنه كلما زادت خلواتي كثرت انتكاساتي، كنت أشد تمسكًا ببقائهم في الغرفة أكثر من أنفسهم شخصيًا.

كان يومي في مركز التأهيل مقتصرًا على دروس اللغة الإيطالية، والوقت الذي أقضيه في ورشة النجارة، بالإضافة إلى أوراق إقامتي التي كنت أتابع إنهاءها دومًا مع الشرطة التي كانت تؤخر الأوراق بشكل مبالغ فيه. لكن كل هذه الأمور قد واجهتها بالصبر، فقد كنت كلما تقدمت في التعافي، شعرت وكأني أستعيد جزءًا من شخصيتي الحقيقية التي كنت أفتقدها كلما انغمست في هذا الإدمان.

فكنت أستمتع بتفاصيل لم أكن أشعر بها سابقًا، شعور جميل كلما أمسكت بالمطرقة مرة أخرى، أو قطعت قطعة خشبية لصناعة شيء جديد، حتى إنني واجهت نفسي عند شرائي هاتف جوال جديد غير الذي فقدته أثناء رحلة الهجرة في القارب، فبرغم أني كنت قد ادخرت مبلغًا من المال أستطيع به شراء أي ماركة هاتف جوال، لكني آثرت أن آتي بهاتف جوال قديم وليس هاتفًا ذكيًا يضيع لي وقتي.

بعد مدة أخبرتني الشرطة أن أوراق إقامتي جاهزة، وأنا قادر الآن على ترك مركز التأهيل والالتحاق بحرية بأي عمل أريده. نصحني آدم أن أصوّر أعمالي وأرفقها بالسيرة الذاتية التي ساعدني في صياغتها لأرسلها إلى الورش التي تحتاج نجارين، فقد أوضح لي أن أغلب المناطق المنتشر بها صناعة الأثاث هي في الشمال كفلورنسا

وتوسكانا. بالفعل أرسلت السيرة الذاتية لبعض الورش على أمل أن ألتحق بإحداها.

وما هي إلا عدة أيام حتى أتاني الرد من ورشة نجارة في توسكانا أنهم اطلعوا على سيرتي الذاتية ووافقوا على منحي فرصة عمل في ورشتهم، فاتجهت شمالًا إلى منطقة براتو في توسكانا حيث كانت الورشة التي ستحدد بداية رحلة جديدة في إيطاليا.

ورشة فرانشيسكو...

****

ذكريات

بحثت يومًا على الإنترنت في اليوتيوب عن علاج لمشاهدة الإباحية، وإذ بي أتفاجأ أن هناك أشخاصًا تكلموا عن مثل هذا المرض، كنت حينها أول مرة أعرف أنه إدمان يسيطر على العقل ويسبب سلوكًا قهريًا يسمونه "إدمانًا سلوكيًا"، وله علاجات وطرق تعافٍ وغيرها من الأمور التي كنت أجهلها، فكنت أعتقد أني بمفردي أعيش هذا العذاب.

بالفعل بدأت بمتابعة أحد البرامج الذي ظهر لي في البحث، وما كان من مقدم البرنامج في أول حلقة إلا أنه ذكر أن هذا الإدمان هو من أخطر أنواع الإدمانات، فالمادة الإدمانية بصرية وتلعب على وتر الغريزة الجنسية بالإضافة إلى أنه مجاني وأيضًا سري، يمكن أن تشاهد لمدة سنوات ولا يعلم أحد، وتكتمل الدائرة الإدمانية بممارسة العادة السرية، فتظل تكرر الدائرة حتى يحدث لك العديد من الأعراض كالصداع المستمر والأرق والقلق الاجتماعي وتغييرات مزاجية كثيرة وبوادر اكتئاب كلما زادت شدة إدمانك. حينها شعرت أنه يتحدث عني بالتفصيل، فكل هذه الأمور أعاني منها مع انعدام القيمة والطموح وعدم الثقة بالنفس والكسل.

فما كان مني إلا أن أكملت معه حتى قال إن أي عادة سلوكية يمكن أن تتغير بدايةً خلال تسعين يومًا إذا أحسنا استغلال تلك الأيام وأدخلنا بنودًا جديدة تساعد في إفراز الدوبامين الطبيعي من ناحية، وانشغال الوقت من ناحية أخرى.

وهو الأمر الذي شجعني أن أخوض تلك التجربة لعل وعسى يكون وراء هذه الكلمات الفرج المنتظر، بعد أن تأكدت أن ما أنا فيه إدمان، فلابد من البحث عن العلاج، فيكفي الخسائر التي خسرتها، ويكفي الحال الذي وصلت إليه. بالفعل بدأت بوضع جدول محدد لليوم والعودة لإنهاء آخر عام دراسي بشكل جيد، وظللت على ذلك البرنامج أسبوعًا كان من أفضل الأيام التي مررت بها منذ زمن طويل. وبعد نهاية الأسبوع ومع صداع مستمر، كنت عائدًا من الكلية مرهقًا من ضغط المحاضرات واقتراب الامتحانات، عدت إلى غرفتي في الورشة ولا أعرف كيف تخليت عما كتبته في الجدول، وإذ بي أنتكس مرة أخرى. لا أعلم ماذا حدث، ألم أكن صادقًا في التعافي؟ أم أن الأمر أصعب مما ظننت؟ للأسف هذه الانتكاسة سحبت معها عدة انتكاسات متتالية، شعرت أني وصلت أسوأ مما كنت عليه. عدت مرة أخرى أبحث عن برامج تعافٍ لعل تكون بداية جديدة، خصوصًا أن الاختبارات النهائية لسنة تخرجي أيام وتبدأ، ونحن في الأزهر تقدير عام التخرج له الأهمية بما كان. فما كان مني إلا أن بدأت من جديد وركزت كثيرًا على فكرة فك الارتباط بين الإباحية

والعادة السرية، فهذا المزيج السحري هو ما يُكبلني. بدأت أقرأ أكثر وأزيد وعيي بالمزيد من الكتب التي وجدتها عن الإدمانات السلوكية عمومًا، وهذا النوع من الإدمان خصوصًا. هذا الأمر ساعدني في هذه الفترة من التعافي التي تزامنت مع امتحاناتي النهائية التي ساعدتني في النجاح بمعدل طيب، وما إن نجحت في سنة التخرج استشعرت بفرح كبير بزوال هذا الثقل الذي كان يلازمني، وما إن عدت لغرفتي في الورشة، إذ بي أدخل في انتكاسة مريرة لا أفهم سببها، في الحزن أنتكس، وفي الفرح أنتكس، لم أعد أفهم مشاعري ولم أعد أقدر ولا أستطيع التعامل معها. أصابتني هذه الانتكاسة في مقتل، فلم أعد قادرًا على التحكم في نفسي، كل يوم انتكاسة أشد من التي قبلها.

خرج مني زفيرٌ وكأني ألفظ معه أنفاسي الأخيرة من هول تلك الرحلة التي لم تكن سهلة أبدًا، منذ أن خرجت من مصر هروبًا إلى ليبيا دون علمي أنها هجرة غير شرعية، إلى رحلة إيطاليا، إلى عودتي إلى مصر مرة أخرى ثم العودة من مصر إلى إيطاليا لأكمل رحلتي فيها، وظللت بين مصر زائرًا لها كل عام وإيطاليا مقيمًا فيها بسبب عملي وأولادي وزوجتي، تلك الرحلة التي لم تفارقني يومًا، وكنت أعتمد عليها في استكمال رحلة تعافيَّ من هذا الإدمان الخبيث الذي بسببه فقدت أشياء لم أكن أعتقد أبدًا أني أفقدها، ومررت بأشياء ومواقف لم تخطر لي على بال، بل أحيانًا عندما أتذكر هذا الذي مررت به لم أكن أصدق نفسي، وأشعر أني كنت في حلم طويل. فبسببه فقدت

أبي الغالي، الذي لم أنسه أبدًا ولم أستطع أن أسامح نفسي أبدًا على ما فعلت، إلا أني أحيانًا أهون على نفسي بما رأيته منه في ذلك اليوم الذي زرت قبره فيه، وأن الله قد عوضني عنه بزوجتي الحسناء المثقفة التي لم أشعر معها أبدًا بغربتي التي أنا فيها، ولم أشعر أني تركت بلادي، فكانت هي وطني وموطني وزوجتي وابنتي البكر وصديقتي وكل دنيتي، حتى قررت يومًا أن أفاتحها في موضوع إدماني الذي كنت فيه، وأبوح لأول مرة لأحد يعرفني بذلك السر الذي لم أبح به إلا لذلك المعالج الذي تعرفت عليه على الإنترنت. فبرغم تفهم ماريا للعديد من الأمور وتفتحها وثقافتها، لكن أمر الإدمان كنت قرأت فيما قرأت من كتب التعافي خلال رحلتي أن إخبار الزوجة بمثابة سلاح ذو حدين، فقد تكون أفضل صديق تعافٍ إذا تفهمتك، لكن إذا لم تتفهم الأمر ستنظر إليك أنك تخونها ولن تغفر لك أبدًا. الأمر خطير ولا يحتاج إلى المجازفة، لذلك دومًا كنت أؤجل الحديث معها أو أن أفاتحها في ذلك الأمر.

فاخترتُ يومًا صافيًا نام فيه الأولاد باكرًا، ووقتًا هادئًا مناسبًا. في وقت سمر بدأت فيه الأحاديث المعتادة، ثم تطرقت لموضوع الإدمانات السلوكية، ثم انعطفت تخصيصًا على إدمان الإباحية منتظرًا ردَّ فعل من ماريا، إلا أنها تكلمت بكل عقلانية أنه إدمنٌ سلوكيّ قهريّ انتشر بسرعة بفعل عوامل السرية والمجانية المصاحبة لاستخدام الإنترنت. وظلت تشرح الأمر من جميع جوانبه كأنها

خبيرةُ تعافٍ، وأنا مذهول مما تقول، فقاطعتها: هل في رأيك أن الزواج يعالج هذا الإدمان؟ أجابت: بالقطع لا لأن مسار الإدمان والزواج لا يلتقيان، فالفطرة الطبيعية غير الإدمان المكتسب، وإن كانا يبدوان أن منبتهما واحد.

استكملت حديثها أن الواقع الذي نعيشه هو الذي يعزز مثل هذا النوع من الإدمانات، بالإضافة إلى عدم التطرق لها سواء في المدارس أو الأسر بشكلٍ كبير لحساسية الموضوع، برغم أن المخاطر الناتجة عن إدمان مثل الإباحية قد تكون وخيمة ولا تقتصر على المدمن ذاته، فقد تتأثر بها أسرته، بل إن بعض المدمنين الذين تزايد التصعيد الإدماني لديهم لمراحل خطيرة قد يشكلون خطرًا على المجتمع المحيط من خلال التحرش أو قد يصل الأمر إلى الاغتصاب وخروج الأمر عن السيطرة في بعض الأحيان إلى الاعتداء على الجنسيين سواء أطفال ذكور أو إناث. وهذا يؤدي إلى مشاكل نفسية عميقة في شخصية المدمن تجعل الزواج في هذه الحالة ليس علاجًا بل كارثةً عليه وعلى من تزوجها، إن لم يبادر بالتعافي الجدي قبل الزواج.

وذكرت لي ماريا حينها أن هناك إحصائيات منتشرة أن أكثر من تسعين بالمئة ممن يعانون من ضعف الانتصاب تحت سن الثلاثين بسبب إدمان الإباحية. قاطعتها مستفسرًا: هل المدمن لابد أن

يتعافى نهائيًا حتى يتزوج، أم أمر الزواج نسبي؟ فأجابتني إجابةً أقنعتني كثيرًا، حيث ذكرت أن جدية التعافي تستلزم الانخراط في أنشطة تقوم على تحمل المسئولية في الأساس، لكن خطوة تحمل مسئولية الزواج تأتي بعد خطوات عديدة في التعافي، من الالتزام بجدول تعافٍ والتخلص من المشاكل النفسية قبل الزواج التي سببها الإدمان مثل الاكتئاب أو القلق أو قلة تقدير الذات والرهاب الاجتماعي وخلافه من الأمور المصاحبة لمثل هذا الإدمان.

ذكرت لي نقطة مهمة أن الشهوة الإدمانية ليس لها حدّ، فمهما تم تصعيد الشهوة إلى حد معين ستجد عتبة أخرى يطلبها دماغك للوصول لها، وهكذا إن سرت خلف عقلك الإدماني ستهلك دون بلوغ حد الذروة الذي تعتقد أنه موجود، لكنه في الحقيقة مجرد وهمٍ داخل عقلك، مثل من يشاهد إباحيةً ويحبس بداخله المنيَّ، فلا هو أنهى انتكاسته، ولا هو ترك جسمه بشكل طبيعيٍّ، فيتأثر نفسيًا بمشاهدة الإباحية، ويتأثر جسديًا بحبس القذف.

لم أكن أعلم أن ماريا قارئة بهذا الشكل في هذا الموضوع إلى أن قالت لي: حتى الفتيات يعانين من مثل هذه الأمور، وخصوصًا في هذا الجيل الذي زاد بسبب انتشار الإنترنت عند طفولتهم، وهو ما أخافني كثيرًا على أبنائي جمال وتحية، لكن ما طمأنني وجود أمٍّ واعيةٍ ومدركةٍ للخطر المحدق الذي يدور حولنا.

وقد نبهتني أن أغلب الإحصائيات تدل أن نسبة الذكور في الوقوع في مثل هذا الإدمان أكبر بكثير من الإناث، وهو ما جعلني أقوم بالتركيز على جمال بشكل كبير وملاحظة تصرفاته، متى يمسك بيده التابلت الخاص بوالدته؟ على ماذا يشاهد على التلفاز؟ وحينها علمت أن الأبوة ليست رعاية فقط من مأكل ومشرب ومسكن، لكن أيضًا تربية وهي الأهم وتأتي في المقام الأول.

أوضحت لي أيضًا ماريا نقطة كنت قد قرأت عنها كثيرًا في كتب التعافي، وهي أن الدماغ يكيف نفسه على ما تعرضه عليه، فأنت قادرٌ على جعله مثل أشد المدمنين، وأنت أيضًا قادر على تنظيفه وتكون في مقدمة المتعافين. ولكن ذلك يكون من خلال تحديد مسببات الوقوع في الإدمان ومحاولة استعادة السيطرة من خلال تقنين استخدام الهاتف ووضع برامج الحجب المناسبة، وإعطاء يوم على الأقل للنفس إجازة من الهاتف الجوال، وممارسة التأمل وتمارين اليقظة الذهنية، والأهم هي مشاركة ما يواجهك مع مجتمع تعافٍ يفيدك في الأمر، سواء خبراء تعافٍ أو معالجين متخصصين.

أردفت ماريا أن مع التقدم في التعافي سيشعر الإنسان أنه أصبح اجتماعيًا أكثر، لا يميل إلى الانعزال في المنزل بمفرده، يفهم دماغه بشكل عقلاني ويعرف كيفية التعامل مع رغباته الملحة وكيفية

الصبر على الأعراض الانسحابية من الصداع والموت السريري والأرق والتخيلات والكوابيس الجنسية التي تؤرق نومه.

أكدت عليّ كلامها بأن التعافي هو أن يكتشف الإنسان نفسه من جديد، يكتشف مواهبه التي دُفنت وقدراته التي حُجمت، يعيد بناء ثقته بنفسه والتحكم في فضوله ومجابهة ضغائن الذات والوهم غير الحقيقي الذي يقضي عمره في السير وراءه، ويكون ذلك من خلال أمورٍ أهمها التركيز على نمط يومي نقيّ من التعرض للإثارة، بالإضافة إلى غذاء صحيّ وعدم الجنوح للنوم إلا في أوقات النوم المحددة، وممارسة التأمل بشكلٍ يوميٍّ مع ختام اليوم بكتابة اليوميات، فهي ضرورة لابد منها لأي شخص يريد أن يستمر في حياة التعافي.

أكدتُ لماريا برغم أن حديثنا يبدو علميًا جدًا، لكن أخبرتها أن كل هذه النقاط لا يخلو منها الدين الإسلامي إذا أحسن المرء اتباعه وفهمه بالشكل الصحيح، فلم يترك لنا الإسلام شاردة ولا واردة إلا بيَّنها، فالسعيد فعلًا من تدبر فيه، والمتعافي الحقيقي هو من استخلص الدروس والعبر التي سيبينها الله له في رحلة تعافيه لتسخيرها له طوال الطريق، فالأمر ليس ببلوغ نهايته ولكن بدوام السير على الطريق الصحيح مهما كانت المعوقات، فاليأس ليس موجودًا في قاموس المؤمن المتعافي الحق.

لم أخبر ماريا بتفاصيل إدماني، لكنها شعرت من خلال تأثري في المناقشة وأسلوب حديثي عن هذا الإدمان أنني خضت تجربة مريرة معه، وهذا ما جعلها بعد ذلك تقرأ أكثر عن هذا الإدمان وتبني جسور الثقة بيننا في هذه المنطقة من خلال نقاشات علمية مفيدة وبرامج مشاركة الهواتف الجوالة للطرفين.

وهو ما جعلني أشكر الله دومًا على مثل هذه الزوجة التي وهبني الله إياها، فقد كانت نعم السند في مواجهة عثراتي وزلاتي، كانت داعمةً لي أكبر من دعمي لها، حنونةً عليَّ أكثر من عطفي عليها، كانت نعم الزوجة والأم لأبنائي، حتى دخول أبنائنا المدرسة كانت تتابعهم جيدًا في جميع الأمور، وكانت تتابع معي أوراق حصولي على الجنسية حتى حصلت عليها قبل دخول تحية للمدرسة.

بعد دخول تحية الصف الأول لمرحلة "سكوالا بريماريا" وهي التي توازي المرحلة الابتدائية مرحلة التعليم الأساسي في بلادنا العربية، كان جمال قد دخل الصف الثالث الابتدائي، كنت حينها قد حصلت على الجنسية واستقرت الأمور والأوضاع.

****

النهاية

كان الصمت في الغرفة قاتلًا لدرجة أني لم أسمع إلا أنفاسي، فقد كان البيت هادئًا منذ أن نامت ماريا بجوار جمال وتحية في الغرفة المجاورة، أغلقت غرفة النوم واستلقيت على السرير، ثم مددت يدي إلى الهاتف الجوال لأتصفح أي شيءٍ عشوائيٍّ.

لا أعرف لماذا الآن شعرت أن نفسي جنحت إلى أمر تركته منذ فترة طويلة، هل هو الخلوة أو الغرور بمرور وقت طويل على الانتكاسات أم إحساس شوق كاذب إلى أمر قد دمرني كثيرًا في الماضي؟

نهضت من على السرير ونظرت لنفسي في المرآة أحدثها: كيف بعد كل هذه الاحترازات تفكرين في أمر كهذا؟ فما كان من دماغي العقلاني إلا أن أخبرني: لا حيَّ يُؤتمن عليه من الانتكاس ما دامت توفرت له الظروف المسببة لذلك.

حينها لم أدخر وقتًا للخروج من هذه الغرفة، فذلك المشهد أعرفه جيدًا وأعرف نهايته في حالة الانتكاس، وجدت أنه قد ينتهي بكارثة أو ينتهي بانتصار في الاختبار الذي أنا فيه، تركت الشقة بكاملها ونزلت إلى الورشة برغم تأخر الوقت.

فتحت الورشة من الباب الخلفي للحديقة المطلة على شرفة الشقة، أنرت بعض الأضواء وأخذت أتلمس المعدات ورائحة الخشب وذكرياتي الطويلة مع هذه المهنة، ثم خرجت للتمشية في شوارع براتو، وبعدها عدت للمنزل اغتسلت وصليت ركعتين مع قراءة بعض آيات من القرآن الكريم، ثم خلدت للنوم تاركًا الهاتف الجوال في الصالة.

عندما أمسكت بالقلم ذلك اليوم لكتابة يومياتي، لم أعرف في بداية الأمر ماذا أكتب. فمنذ بداية الكتابة في هذه اليوميات لم أجد أفضل من أن أبدأ برد فعل أبي وأمي عندما علما بقدومي، ثم سرد النشأة الاجتماعية لأبي حتى أصبح خير أب لي ولإخوتي، لم أكن أعرف ماذا أكتب بعد ذلك في اليوميات؟ لكن مما قرأته في كتب التعافي أنك لابد أن تستمر في الكتابة، مهما كان نمط الكتابة ومهما كانت تفاصيلها، الأهم أن تُخرج ما بداخلك، فهذا سيزيل عنك الكثير.

فظللت أكتب ثم أكتب، كتبت رحلتي في هذه الصفحات، فإن كنت شعرت يومًا أن ما كنت تقرؤه هو مجرد رواية، فدعني أخبرك أنك كنت طيلة هذا الوقت تقرأ يومياتي.

أنا صهيب جمال... رجل خاض حربًا طويلة ضد إدمان خفيّ وشرس، تغذى على وحدتي وكبر بصمتي الداخلي، ظل يُهدر عمري حتى كاد أن يُهلكني، إنه "إدمان الإباحية".

لم يكن إدمان الإباحية يومًا من ضمن المخطط أن يشمل مثل هذا الحيز من حياتي، عطفًا على تنشئتي الاجتماعية وتدين أسرتي لم أتخيل أن أنظر إلى الحرام فضلًا عن الوقوع في الإدمان به، لكن هذا الإدمان لا يحتاج أكثر من لحظات للاسترسال معه في مراهقتك بداعي المتعة أو حب الفضول ليسرقك من نفسك وأهلك وبيئتك المحيطة لمدة لا يعلم مداها إلا الله.

بمجرد أن يتملك منك فلا طائل من مقاومته بالحماسة وقوة الإرادة، سيكسرهما ويتطور ليصبح وحشًا كاسرًا قادرًا على إفشال كل محاولات الخلاص منه، ويحول حياتك الخضراء وتطلعاتك للمستقبل إلى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، ولن يُبقي لك إلا انتكاسات تتلوها انتكاسات.

لذلك ركزت على فهم طبيعة هذا الإدمان الذي يصل بالشهوة الجنسية إلى مناطقَ ليس للعنصر البشري طاقة بها، فوجدت أن الإثارة الجنسية تبدأ من الدماغ، فهو المهيمن والمسيطر على كل شيء من أفكارك إلى سلوكك مرورًا بالمشاعر والأحاسيس التي تسري

بداخلك، فالدماغ في هذا الإدمان لا يفرق بين صورة الشاشة واللمسة الحقيقية، الأهم عنده كمية إفراز الدوبامين، فيصبح الدوبامين سجانك الذي لن تنجو منه إلا بالصبر على العودة إلى معدلاته الطبيعية لا بالاستسلام لهذا السيل الهادر من الكوكايين البصري الذي يحيط بنا في كل مكان.

في عصر تفشي الإنترنت بسرعاته الخارقة وتطوراته المذهلة، أصبح في كف اليد الأيمن للطفل الصغير هاتف جوال، وفي كف اليد الأيسر جهاز لوحي، وأمامه تلفاز متصل بالإنترنت، وأصبحت الفجوة بين جيل الآباء والأبناء تتسع كل يوم، فما عدنا نعرف أيهما أولى بالعلاج الآباء أم الأبناء.

لذلك أصبح فهم خطورة هذا الإدمان ضرورة حتمية ليست مقتصرة على مجهودات أفراد، لكن لابد من تعاضد مؤسسات كبرى لصد هذه الموجات الإباحية التي تسري في المجتمع مجرى السيل في المنحدر.

فلا تعافٍ بدون معرفة ووعي وفهم لحقيقة الأمر بشكل علمي، فحتى وقت قريب لم يكن يُصنف إدمان الإباحية كإدمان سلوكي من الأساس، حتى ظهرت أعراض المنغمسين في هذا الإدمان بشكل جلي من انتكاسات متكررة ومحفزات غير طبيعية وخيالات جنسية

لأمور عنيفة بعيدة عن البشر الأسوياء، وأصبح أغلب المدمنين خطرًا على المجتمع، وأصبح أغلبهم منعزلين بدون صحبة تفهمهم أو مجموعات دعم ترشدهم.

أصبح الدور على الجميع لمعرفة أن الالتزام الديني وحده لا يُنجي، والإرادة للإقلاع لا تكفي، حتى العلم منفردًا لن يصنع شخصًا متعافيًا حقيقيًا يخرج من هذه الرحلة المظلمة منتصرًا على نفسه البشرية، فالانتصار على هذه النفس المدمنة هو أعظم انتصار.

ما يحزنني كثيرًا أن أجد أنّ أغلب من اجتهدوا للخلاص من ذلك الإدمان كان بسبب أضراره التي يحدثها في الدماغ، وليس مبدأه العودة لله عز وجل، لا أقول إن الأمور الأخرى ليست مهمة، لكن لابد أن يكون في مقدمتها هو التوبة لله عز وجل، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

كنت أتابع شهريًا طوال فترة إقامتي في إيطاليا المقالات والأبحاث التي تتناول موضوع إدمان الإباحية، فقد كانت الكتب والأبحاث سابقًا المختصة لمثل هذا النوع من الإدمان قليلة، وبرغم التوعية الكبيرة في هذا العصر الحالي، إلا أن هذا الإدمان ما زال ينتشر ويتمدد خصوصًا في فئة المراهقين والشباب.

ولو ألقينا نظرة على مشكلات هذا الجيل، لوضح جليًا ما فعله انتشار الإباحية واستساغة العري في المشاهد الموجودة على الشاشات المفتوحة في المنازل. فأصبح حتى رب الأسرة لا يُنكر على أبنائه مشاهدة مشاهد هي بكل الأشكال تُفضي إلى الإباحية.

إن التحدي الأصعب أن أغلب أنواع الإدمانات السلوكية المنتشرة الآن لا تضر فقط فيما تسببه بشكل مباشر، لكن المشكلة الكبرى في الآثار التي تترتب على ذلك الإدمان على المدى البعيد من مشاكل نفسية وخلل في تأدية الوظائف الاجتماعية وعدم القدرة على تكوين علاقة عاطفية سليمة، حتى الإقلاع عنه لا يعني التعافي. ولكن التعافي من الإدمانات السلوكية يكون ببناء كامل متكامل لجوانب الحياة، وهذا لا يكون إلا بالبدء أولًا بإعادة برمجة الدماغ للأساسيات التي يجب أن ينجذب لها كونها أمرًا طيبًا، والأمور التي لابد أن ينفر منها كونها أمرًا خبيثًا، فدماغ المدمن أصبح بها خلل كبير في هذه الجزئية.

ومن خلال تجربتي لابد أن أؤكد لكم أن الأمر لا يقتصر كثيرًا على المكان الذي وُجدت فيه، فقد تعافيت في إيطاليا حيث التبرج والاختلاط في أوروبا، ووقعت في أشد فترات إدماني في مصر حيث التدين في كل مكان.

فالدماغ لا يعمل بهذه الطريقة، ولا هو زر تضغط عليه فيعيد الإعدادات كما كانت عليه سابقًا، الأمر يحتاج إلى وعي شديد لدقة المرحلة التي تمر بها، ومعرفة أن الدماغ قابل للعودة لطبيعته مع بعض الهدوء وكثير من الانضباط والصبر على مرور الوقت، مع بعض الأعراض الانسحابية المؤقتة التي ستزول، ولكنها ضريبة لابد أن تُدفع للخلاص من هذا الإدمان.

ولكي تتخطى ذلك المنحنى المنعرج فلابد مبدئيًا من الالتزام بجدول تعافٍ لمدة تسعين يومًا على الأقل كما اتفق على ذلك أغلب علماء النفس، فمدة الثلاثة شهور كفيلة لإحداث تغييرات عصبية، كاستعادة الدماغ لحساسيته للدوبامين، وإعادة ضبط دوائر المكافأة، وتقوية الروابط العصبية كالتركيز الذي فُقد أثناء الانغماس في الإدمان، وضبط النفس والإشباع الطبيعي.

أيضًا لابد من جدول تعافٍ متزن يشمل الجانب الإيماني كالصلاة والذكر والقرآن، وجانب عملي كالابتعاد عن المثيرات وإدارة الوقت، وجانب علمي كالقراءة ومتابعة برامج الدعم، فهذا يحدث تغييرًا في نمط حياة المتعافي وليس ترك المشاهدة فقط، فبحسب علماء السلوك أن تغيير العادة لا يكون فقط بالإقلاع عنها، ولكن ببناء نمط حياة تعافٍ جديدة يشمل عناصر عديدة منذ لحظة الاستيقاظ لصلاة الفجر وحتى النوم المبكر المنتظم، والأكل

الصحي والرياضة والتأمل وممارسة هوايات قديمة وتعلم مهارات جديدة... إلى آخره.

بالطبع هذا ليس معناه أن نهاية التسعين يومًا هي نهاية التعافي، لكنها بداية جدية صادقة للشفاء الكامل الذي قد يمتد إلى أطول من ذلك، ويختلف من شخص لآخر حسب شخصيته وطبيعة تنشئته ومدة إدمانه وتكرار مشاهدته. لكن عند الجميع تبدأ بعد التسعين يومًا رحلة أعمق في أغوار النفس لفهم حياة التعافي أكثر وتأسيس نمط حياة دائم، يتعايش معه الإنسان، ولا يرتاح إلا بالتعافي، لا أن ينتظر مرور أيام التعافي كأنه يريد أن يرتاح منها لا بها، وهذا مربط الفرس.

فالشخص المتعافي ليس معناه أنه لا يخطئ، لكن عنده وعي للتعلم من خطئه، وعنده وعي لعدم تكرار الخطأ بنفس الطريقة، نعم هو حين يسقط في زلة أو انتكاسة ليس متعافيًا في هذه اللحظة، ولكن ليس معنى ذلك أن كل الشهور التي تعافى فيها ليس لها معنى، كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"، هو لم يُرفع عنه إيمانه بالكُلية رغم وقوع الكبيرة، ولكن حين وقوع الكبيرة رُفع عنه هذا الشرف فرفع عنه الإيمان الكامل، كذلك المتعافي الذي قد ينتكس في لحظة، لا نرفع عنه رداء التعافي بالكُلية،

ولكن لحظة وقوعه في هذا الأمر ليس متعافيًا بشكل كامل، لكنه ما زال في الطريق ما دام يحاول.

وهذا يوضح للجميع أن رقم ٩٠ ليس مقدسًا، ولكنه مرحلة مُجرَّبة على كثير من المتعافين استطاعوا من خلالها الوصول إلى حياة التعافي المنضبطة، فقد مررت بها عدة مرات، وأعلم تمامًا شعورك إن حدث شيئًا على عكس المتوقع بعدها، لكن إن فهمت رحلة التعافي الحقيقية، ستعلم أنها في تفاصيل الطريق وليس في الوصول نفسه.

هذا يكون في رحلة استعادة السيطرة، فإذا استطعت أن تضبط تعاملك مع هاتفك الجوال من خلال استخدامه في أمور مفيدة، وفي أوقات محددة، فأنت هنا قد بدأت جديًا في استعادة جزء كبير من السيطرة على نفسك، فالهاتف الجوال هو منبع أغلب الإدمانات السلوكية كالألعاب ومواقع التواصل الاجتماعي وغيرها من الإدمانات المرتبطة بالهاتف الجوال وليست الإباحية فقط.

استعادة السيطرة أيضًا أن تُطبق برامج حجب المحتوى السيئ، وأن تستبدلها ببرامج التعافي كبرامج "عد الأيام" وبرامج الدعم، وتطبيقات تنظيم الوقت، وكتابة اليوميات، ومن استعادة السيطرة أن يكون لك أنشطة خارج المنزل؛ كالتطوع في الأعمال الخيرية، أو

أي هدف سام غير ربحي يشعرك بقيمة كبيرة في الحياة، حتى تخطيط أهدافك المستقبلية مهم، وبدون أن تفكر كثيرًا في النتائج، فأنت ما عليك إلا السعي، والنتيجة على الله، كما قال الله في كتابه الكريم: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى".

فاحرص دائمًا على القيام بما تستطيع، وأن تجتهد في وضع حد لسيل الدوبامين الذي يحيط بنا بشكل غير هادف، واستبداله بأمور واقعية ملموسة، فكلما حسنت صحتك النفسية، كلما قل استخدامك لتكنولوجيا هذا العصر بشكل غير مفيد.

ولا بد أن أخبرك أنك إن قررت جديًا السير في طريق التعافي لن تواجه طريقًا مفروشًا بالورود، ولكن ستواجه أعراضًا انسحابية من تقلبات نفسية مختلفة نتيجة تعود دماغك على نمط مشاهدة واحد لعدة سنوات، لكن المبشر في الأمر أن هذه الأعراض الانسحابية مهما طالت فهي زائلة وليست دائمة.

الأهم أن تكون أكثر وعيًا في هذا الطريق من ذي قبل، فالدماغ الإدماني ذكي بالدرجة التي قد تجعلك في فترة من فترات التعافي تنجذب إلى بعض الصور التي لا تُصنف إباحية صريحة، كرياضة الكرة الطائرة الشاطئية للنساء أو السباحة، وقد يوهمك أنك تتعافى من الأفلام الإباحية وليس من الصور، لكن عقلك قد لا يميز ذلك،

ولهذا لابد أن يكون بداخلك مراقبة ذاتية، وعندما ترى الإباحية نفسك ستعرفها حتى وإن كانت في فيلم يشاهده معك العائلة بأسرها.

أما إن كنت أنت رب الأسرة، فالتعافي بالنسبة للمتزوجين لا يختلف كثيرًا، غير أنني أنصح كثيرًا بتنحية التخيلات أثناء الجماع، حتى وإن كنت ستؤخر الجماع حتى تنظيف الذاكرة الجنسية تمامًا، فهذا هو أكثر ما يُضعف الانتصاب لدى المدمنين المتزوجين.

لا تجعل نفسك الإدمانية تتملك منك في أوقات الملل، فتُقلل في نفسك ما تقوم بعمله أو تُشعرك أنك تبذل مجهودًا كبيرًا في أمر لا يستحق، وكلما ساورتك تلك الخاطرة، تذكر ما كنت عليه حين كنت منغمسًا في الإدمان، وستعلم القدر الذي وصلت له.

إن كانت لي نصيحة أخيرة في النهاية، فهي أن صُناع الإباحية لا يهتمون بك، فهم في الأساس تُجار لا يريدون منك إلا أن تكون عبدًا لسلعتهم أيا كانت، فلا يهتمون بما سيحدث لك في حياتك حتى وإن تدمرت وانتهى الإدمان بالانتحار.

برغم أن أغلب مدمني الجيل الحالي أدمنوا قبل أن يبلغوا بسبب الانتشار المجنون للإنترنت، فقد لا نُحملهم سبب إدمانهم بشكل

مباشر، لكن حتى وإن كنت غير مسئول عن إدمانك، فأنت في حقيقة الأمر مسئول عن تعافيك.

مسؤول عن البحث الحثيث عن جذر الأمر وتوابعه وكيفية حلها بتأنٍ، فنحن لسنا في سباق من يصل أولًا، خطة التعافي تحتاج إلى دوام التنقيح، فالعبرة فيها ليست بمن سبق، لكن العبرة الحقيقية في رحلة التعافي بمن صدق.

فحرر نفسك من تلك الأغلال بداخلك التي تُشعرك دائمًا بالنقص والدونية بسبب تملك هذا الذنب منك، فهذا فعل الشيطان الذي يريدك دائمًا أن تشعر أنك ضعيف غير قادر على خوض غمار تحديات المستقبل، فَيُيَئِّسُكَ من روح الله ويُكبر الذنب لديك حتى تشعر أنه لا فِكاك ولا مغفرة منه، لكن الله عز وجل أرحم بالعبد من الأم بولدها، ولن يتركك مهما تعثرت ما دمت تحاول.

وتذكر دائمًا يا صديقي أن الإباحية لا تعطيك شيئًا حقيقيًا، فهي مجرد وهم وراء شاشة، قد يدور بحلمك حول البلاد هروبًا من واقعك كما فعل معي من مصر إلى ليبيا، ومن ليبيا إلى إيطاليا، ولكن كله سراب ما دمت لن تواجه بنفسك، سيسلب منك راحتك وحيائك ونقاءك ومن ثم كرامتك.

لكنك تملك الفرصة، الآن وليس غدًا، فما دام فيك عِرق ينبض، فالفرصة ما زالت قائمة، والرحلة تستحق المغامرة، لأنه حين تنهيها ستعلم أنك وُلدت من جديد.

النهاية، ثم أغلق الكتاب وسط تصفيق الجمهور الغفير الذي حضر حفل توقيع آخر أعمال الدكتور "محمود"، ذاك الطبيب النفسي الذي كتب ذلك الكتاب من واقع الحالات التي كان يعالجها بعد أن استأذنهم في نشر رحلاتهم، لربما يكونوا سببًا في نجاة أحد الغارقين في بحار تلك الإدمانات، بينما كان صهيب بين الحاضرين دون علم أحد، فغمز له الدكتور امتنانًا له بنجاح تلك الرواية، سائلين الله عز وجل أن ينفع بهم وينفعهم بما تعلموا.

إعداد وتأليف

د. محمود المهدي

الفهرس

إهداء ٥
المقدمة..... ٧
رحلة الموت..... ١١
المصري معروف بجبروته..... ١٨
فات الأوان..... ٢٣
حب من النظرة الأولى..... ٢٨
بداية الحدوتة..... ٣٢
حفل زفاف..... ٤٩
صدمة..... ٥١
عودة من جديد..... ٥٧
ذنب لن يُغتفر..... ٦١
أول لقاء بعد طول فراق..... ٦٣
الهروب..... ٦٧

نكسة..... ٨٣
بما يفيد الندم..... ٩٦
عمر جديد..... ١٠٠
ذكريات..... ١١٦
النهاية..... ١٢٥